الفصل الثالث

الحفاظ على الماضي

لقد عايشَتْ السيدة العذراء كل المراحل معنا، فهي في أعماقنا، وابنها أيضاً. يبدو لي أن السيدة العذراء هي الحياة في شكلها الملحد، وهي الإنسان بعيداً عن العناية الإلهية.

فاسيلي غروسمان، السيدة العذراء

obeikandl.com

obeikandl.com

السيطرة على الذاكرة

كشفت الأنظمة الشمولية التي انتشرت في القرن العشرين عن وجود خطرٍ لم يكن في الحسبان سابقاً، ويتمثّل بالاستحواذ الكلي على الذاكرة. هذا لا يعني أن أحداً في الماضي لم يكن يلجأ إلى التخلّص المنظّم من الوثائق، أو إلى تدمير الآثار، ومن المعروف أن هذه الطريقة عنيفة لتوجيه ذاكرة المجتمع برمته. لنأخذ مثالاً بعيداً عنا في الزمان والمكان، كلنا يعرف أن إمبراطور شعب (الآزتيك **Azteques**) (١) ويدعى "إتزكولت **Itzcoalt**"، قد أمر لدى قدومه إلى البلاد، مع بداية القرن الخامس عشر، بالتخلّص من النصب التذكارية والمجلدات، كي يعيد ترتيب العرف والتقاليد على طريقته الخاصة؛ كما اجتهد المغامرون الإسبان الذين فتحوا أميركا بدورهم في القرن الذي تلاه، بإخفاء وإحراق المعالم والآثار التي تشهد بالتاريخ العظيم لهذا الشعب المهزوم. ولكن بما أن هذه الأنظمة لم تكن تنتمي إلى الشمولية، فإنها لم تتعرض سوى لآليات الحفظ في الذاكرة، تاركة الأشكال الأخرى على حالها، كالقصص المتناقلة والقصائد. وانطلاقاً من إدراكهم أن أمر الاستيلاء على الأراضي والبشر لا يتم إلاّ من خلال السيطرة على المعلومات والاتصالات، فقد عمد الطغاة في القرن العشرين إلى التحكم المنظّم بالذاكرة، مع محاولة السيطرة عليها في خفاياها المنعزلة والسرية. باءت بعض هذه المحاولات بالفشل الذريع، في حين نجح بعضها الآخر (نجد أنفسنا هنا عاجزين عن إحصائها) في إزالة آثار الماضي بمهارة.

والشواهد على الجهد المبذول من أجل التحكّم بالذاكرة لا تخوننا، كما أنها باتت مفضوحة. كتب "بريمو ليفي **Primo Levi**"[1] بتعقّل:"يمكننا إعادة قراءة القصة الكاملة لـ (ريتش الألفية **Reich**) (٢) و واعتبارها حرباً ضد الذاكرة"؛ ولا يختلف الأمر

(١) وهو شعب المكسيك القديم، قَدِم إلى وادي المكسيك في عام ١٣٢٥ وسيطر، ومن بعده سلالته، على البلاد حتى عام ١٥٢٠، وهو تاريخ وصول الإسبان. كانت لدى هذا الشعب حضارة متقدمة، وثقافة لامعة، وتنظيم سياسي مميّز (المترجم).

(٢) وهو تعبير ألماني، يعني الإمبراطورية (المترجم).

بالنسبة للاتحاد السوفييتي أو للصين الشيوعية. وكمثال عن بعض الإجراءات الأكثر شيوعاً التي تمت الاستعانة بها في كل من هذه الدول من أجل السيطرة على تداول المعلومات، يمكننا أن نذكر في المقدمة طريقة محو الآثار. فمنذ صيف عام ١٩٤٢، وبشكل خاص بعد هزيمة ستالينغراد، بدأت النازية بنبش الجثث القديمة بهدف إحراقها وتحويلها إلى رماد. وفي المعسكرات أيضاً، تم بناء مجموعة من المحارق الضخمة للهدف ذاته. ولقي الشهود على تلك المجازر، والقائمون على هذا العمل، المصير نفسه. بينما لم تعبأ الأنظمة الشيوعية بهذا الأمر، بل ظنت أنها ستحكم البلاد إلى الأبد. علماً أن الأراضي الشاسعة في أقصى الشمال من الاتحاد السوفييتي تحتضن عدداً من القبور لا حصر له. وعشية إخلاء المعسكرات قام البوليس السري بحرق كافة المحفوظات والوثائق التي تثبت إدانتها؛ أما بالنسبة لأجهزة الأمن المتعددة في البلدان الشيوعية الأخرى، فإن الغموض يكتنفها حتى أننا لا ندري فيما إذا كان ممثلو الأمن فيها قد عمدوا إلى تصرف مماثل قبيل سقوط حكمهم.

أما الشكل الثاني للسيطرة على الذاكرة فيكمن في اتخاذ إجراءات رادعة لتخويف الشعب ومنعه من تقصّي المعلومات أو نشرها. كما يُحظر على الشعب محاولة الاستماع إلى محطات أجنبية عبر جهاز الراديو، أو يتم التشويش على هذه الإذاعات. وتطال هذه المحظورات المنفذين أنفسهم. "حيث صدر الأمر الصارم إلى كافة عناصر البوليس السري **SS** القائمين على عمليات الإبادة، بالتزام الصمت". ينقل لنا هذا الخبر "رودولف هوس **Rudolf Hoess**" [2] القائد العام لمعسكر الاعتقال في (أوشويتز)؛ فبعد إغلاق المعسكرات غالباً ما يتم نقل هؤلاء العناصر إلى القطاعات الأكثر خطورة. وهذا هو أحد الأسباب الهامة التي بموجبها يتم استبدال وحدات الإبادة المتنقلة (**Einsatzgruppen**) بمعسكرات الإعدام، ذلك لأن عدد الأفراد المطلعين على مجريات الأمور في تلك المجموعات كبير جداً. أما فيما يتعلّق بموظفي الإدارة العليا، فيتمّ تنبيههم بضرورة حفظ الأسرار، بيد أن "هيملر **Himmler**"(١) استعان بإحساسه بالمسؤولية، فكان عليه حملها بمفرده كي يجنّب الشعب الألماني

(١) وهو القائد الأعلى للجستابو، والذي دبّر أمر إبادة اليهود، وانتهى أمره بالانتحار (المترجم).

الوقوع في المحظور في حال تعرضه للقسوة. في خطابه الشهير الذي ألقاه في (بوزنان Poznan)[١] في تشرين الأول من عام ١٩٤٣، يؤكد فيه "هيملر" بشكل متناقض: "إنها صفحة مشرّفة من تاريخنا، فهي لم ولن تكتب في يوم من الأيام"[3] فكيف يمكن لهذا الحدث الذي لم يرد ذكره أبداً أن يساهم في إقامة مجد النازيين؟ يحق لهتلر فقط، الذي يشغل أعلى مركز في الدولة، أن يحلم بتخليد ذكرى الإبادة على صفائح من البرونز، نقشت في أماكن الجريمة، بعد عدة سنوات من تنفيذها.

كان الحظر على المعرفة في الدول الشيوعية منتشراً على نطاق واسع في كافة ميادين الحياة، أما فيما يخص أسرار المعتقلات فكان الأمر أكثر تعنتاً. حيث إن الشعب لم يكن على دراية بشيء، فلم يكن لديه إلاّ الهواجس المبهمة؛ والحرس بدوره، كان ملزماً بكتمان السر المهني؛ أما المعتقلون الذين يمكن إخلاء سبيلهم يوماً ما، فكان يتم إكراههم على الإدلاء بقَسَم للتكتّم على الأسرار تحت طائلة التعرض لعقوبات جديدة أشد. حتى قيل إن طائر النورس كان يقتل في جزر سولوفكي، كي لا يتمكن من نقل الرسائل. ولو حصلت زوجة أحد المعتقلين على إذنٍ بزيارة زوجها، كانت "تُكره على التوقيع على تصريح قبل عودتها إلى منزلها، يلزمها بعدم البوح لأي كان بما رأت داخل المعتقل من خلف الأسلاك الشائكة"؛ كما يوقع زوجها المعتقل بدوره، على تصريحٍ آخر مشبعٍ بالتهديد والوعيد، يقسم فيه على "عدم البوح بظروف الحياة الداخلية للمعسكر أثناء لقائه مع زوجته[4]". أما في بلغاريا، وقبل إطلاق سراح السجين من المعتقل، كان يوقع على تصريح يلتزم فيه بكتمان ما رآه داخل السجن في أثناء فترة اعتقاله، و إلاّ ستنسب إليه تهمة نشر الإشاعات، ويمكن أن يعود من حيث بدأ. كان يجب انتظار عشرين عاماً قبل أن يتجرأ أي معتقل على البوح بالعذاب الذي لاقاه في الداخل.

شكلٌ آخر من أشكال إخفاء الحقائق وغسل الدماغ يتمثّل باستخدام العبارات الملطِّفة. وكانت هذه العبارات كثيرة ومتوفرة في الجانب النازي، خصوصاً فيما يتعلّق بالسر الجوهري للإبادة الجماعية؛ حيث أصبح معنى الصيغ المشهورة شفافاً بدءاً من

(١) وهي مدينة في بولونيا (المترجم).

لفظة "الحل النهائي"، و"المعاملة الخاصة"- ولكنها مع ذلك في تلك الآونة، كانت إيحائية بما فيه الكفاية ("حيث كانت عبارة المعاملة الخاصة تُستخدم في حالات الإعدام شنقاً")[5]. وما إن ينتشر معنى هذه العبارات السريّة حتى يتم استبدالها بغيرها أكثر غموضاً، سرعان ما يبطل استخدامها أيضاً خلال فترة وجيزة: كالترحيل، والإقصاء، والنقل؛ عديدة هي التعميمات الدقيقة التي كانت تصدر لخدمة هذا الغرض. الهدف من استخدام هذا الشكل الثالث هو إخفاء الحقائق عن اللغة المتداولة، وهذا ما يسهّل على الجلادين إنجاز عملهم على أكمل وجه. فبعد عشرين عاماً، وخلال استجوابه، لم يزل "آدولف إيشمانِ **Adolf Eichmann**"يتكلم بأسلوب التمويه، حيث قال: "منطقة خالية تماماً من اليهود"، "ترحيل كل اليهود في معسكر أوشويتز"، "كانوا يرهقونني بأعمال الترحيل هذه"... إلى آخر ما هنالك من عبارات منسّقة. يبدو جلياً أن استعمال مثل هذه العبارات يساعده على تقبّل تنفيذ جرائمه؛ حيث كان يفسّر قائلاً إنه يفضل اللجوء إلى بعض التمويه في التعبير عن مثل هذه الأمور.[6]

وقد توسّع تبديل اللغة إلى أكثر من مجرد استخدام عبارات الاستعارة الشهيرة، ووصل الأمر إلى العالِم اللغوي المناهض للنازية "فيكتور كليمبرر **Victor Klemperer**"حيث إنه كان يسمي **LTI**، **Lingua Tertii Imperii** بـ "لغة الإمبراطورية الثالثة" [7] - أما في النظام الشيوعي، فقد طال هذا الشكل اللغة بأكملها، وولّد ما يسمى "بلغة الخشب"، يحتوي الخطاب فيها على عبارات جامدة لا تتبدّل ولا تمت للحقيقة بأية صلة".

وكان الكذب بكل بساطة، هو آخر شكل من أشكال السيطرة على انتشار المعلومات وتداولها بهدف التحكّم بالذاكرة، أو كما يقال في مثل هذه الحالات الدعاية. ففي بداياته، حقق نظام النازية درجة متقدمة في فن الترويج والدعاية، حيث كان يتم التحدث عن مواقف شجاعة للوزير "غوبلز **Goebbels**"بشيء من الإعجاب أو الفزع. ولكن لو قارنا بين هذين النظامين الشموليين، لأدركنا أن النظام النازي كان في هذا المجال في بداياته الأولى يتسم بالرعونة؛ أما وجود شخصٍ خاصٍ في كل خليّة من خلايا الحزب، مسؤول عن غرس العقائد وأعمال الترويج، فهو أمر لم يأتِ بالصدفة.

ولم يكن موظفو المخابرات السوفييتية (KGB) يخشون من قيام الأجانب بزيارة معتقلاتهم، فقد اقتبسوا من تقاليد أهل القرى في (بوتمكين Potemkine) الذين كانوا يحرصون على تزيين الطريق الذي سيسلكه وفد الزوار، حتى ليحسبه الزائر منهم مسرحاً؛ فقد كان الفارق كبيراً بين شخصية هؤلاء الزوار التي تتسم بالسذاجة حيث انطلت عليهم الحيل، وبين مهنتهم التي تستدعي أن يكونوا رجال فكر. وعندما قام "إدوارد هيريوت Edouard Herriot"رئيس مجلس النواب الفرنسي، وقائد الحزب الراديكالي[١] بزيارةٍ لأوكرانيا في وقت كانت فيه المجاعة منتشرةً في البلاد، شاهد أطفالاً يفيضون صحة وحيوية، لقد أعلنوا له أنهم في كل يوم يأكلون البيروجكي pirojki[٢]. وعندما طلب القيام بزيارة كنيسة، فتحوا له إحداها وكانت قد حُولت إلى مخزن، وجلبوا نسوة تشيكيات تتكرّن بزي راهبات، كنّ يمسكن أنفسهن كي لا تتابهن نوبة الضحك؛ أما رئيسهن، فقد تنكّر بدوره بزي كاهن أرثوذكسي بعد أن وضع لحية مستعارة؛ فاطمأن "هيريوت" لهذا المنظر. أما "رومان رولان Romain Rolland" [٣] فقد صفق فرحاً عندما عُرض عليه برفقة قائد البوليس المخيف "إياغودا Iagoda"، مشهدٌ تمثيليٌ كان أبطاله من سجناء المعسكرات، وحاول إقناع نفسه أن تلك تجربةٌ تربوية ناجحة نتجت عن إعادة تأهيل السجناء من خلال العمل ليصبحوا رجالاً مختلفين. وقد زار "برنارد شو Bernard Shaw"[٤] المعتقلات وأطرى على ما شاهد فيها؛ وكذلك فعل "غوركي Gorki"- لكنه أخفى الحقيقة، فربما كانت له أسبابه. وأثناء الحرب، قام نائب رئيس جمهورية الولايات المتحدة "هنري والاس Henry Wallace"بزيارة معتقل (كوليما Kolyma)[٥]، فجاءت روايته عن الرحلة مليئةً بالحماس، و تلك وثيقة مفزعة تدعو للقلق.

---

(١) الأحرار المتطرفون (المترجم).

(٢) وهو طبق روسي مؤلّف من معجنات ساخنة محشوة باللحم أو السمك أو الخضراوات، ويقدّم كمقبلات.

(٣) المؤلّف الفرنسي الذي عاش بين عامي ١٨٦٦-١٩٤٤، والذي حاز على جائزة نوبل عام ١٩١٦ (المترجم).

(٤) الكاتب الأيرلندي الساخر المعروف (المترجم).

(٥) وهو نهر في سيبريا (المترجم).

وهناك حالة خاصة تدعم هذه المظاهر الآنفة، ألا وهي قصة "جيرزي غليكسمان Jerzy Gliksman" [8] رجل القانون اليهودي الاشتراكي، المنحدر من أصلٍ بولوني، الذي توجّه إلى الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٣٥ كسائح متعاطف؛ وطلب زيارة إحدى الإصلاحيات، فاقتيد إلى معسكر (بولشيفو Bolchevo) غير البعيد عن موسكو، ويا لدهشته عندما رأى وجوه الأحداث المضيئة، الذين أُعيد تأهيلهم. وبعد مضي خمس سنوات، يجد نفسه في بولونيا في الجزء الذي احتله الجيش الأحمر، وفقاً للمعاهدة الألمانية-السوفييتية والموقّعة من قبل "ريبنتروب ومولوتوف Ribbentrop & Molotov"، وتبدأ فيها رحلته الثانية في المعتقلات، جاءت هذه الرحلة الطويلة تلقائية، فاختلفت انطباعاته اختلافاً تاماً عن سابقتها. ففي كل مكان قصده، كان يشعر أن هناك عملية إخراج للمشاهد المدبّرة، كانت تستحوذ على عقول المراقبين الذين كانوا يأخذون بظاهر الأمور. بيد أن النازيين لم يتقنوا هذا الفن أبداً.

وفي المعسكر القديم في (تيريزين Terezin) في تشيكوسلوفاكيا، نشاهد فيلماً نازياً دعائياً عن الحياة في (Ghetto)[١]، فكان (تيريزين) مثالاً للمعسكر الاعتقالي اللائق (كان يتم "نقل" السكان منه وعلى فترات متساوية إلى أوشويتز)، فلا مانع إذاً من عرضه على العالم الخارجي. أما اليوم، فإن الفيلم يبدو مربكاً للنازيين، حيث تظهر فيه جهودهم الترميمية بشكلٍ صارخ، وعلى كلٍ فما نشاهده ليس ممتعا. كان فريق كرة القدم يلعب بإتقان مشكوك فيه، والمعسكرات تكتظ بالمعتقلين، أما نظرات السجناء التي التقطتها كاميرات التصوير على حين غرة، فكانت تفيض باليأس. ويقوم السوفييت بإنتاج فيلمٍ مشابهٍ عن معسكر (جزر سولوفكي)، وهنا أيضاً تتجلى الرعونة في العمل، حيث يظهر حماس السجناء مصطنعا، وقد رسموا الابتسامة على شفاههم. ولا ننسى ذلك الكم الهائل من الكتب والأفلام التي تمّ إنتاجها وأغرقت الكرة الأرضية لعقود عديدة، والتي أعطت لملايين البشر موجباً للعيش والأمل، أعطتهم صورة عن السعادة التي يطمحون إلى تحقيقها: وطن الاشتراكية والعدالة، والجنة على الأرض؛ صورة لا تزال موجودة حتى يومنا هذا في بعض الأماكن

(١) الحي اليهودي المنعزل (المترجم).

المتخلّفة من العالم! فمنذ عهد هتلر، لا بد أن الشباب الألماني كان يعيش أوهاماً مثل تلك التي عشناها أنا وأصدقاء المدرسة في صوفيا؛ ولكن خارج نطاق البلد لم تعرف الدعاية النازية نجاحا مماثلاً.

هذه الوسائل وغيرها استخدمها بشكل متقن نظام الشمولية لضمان هيمنته من خلال حرب المعلومات التي تُشن جنباً إلى جنب مع حرب السلاح. وحيث إن نظام الشمولية يولي أهمية كبيرة في السيطرة على المعلومات، لذا يحاول أعداؤه بدورهم إفشال هذه السياسة بشتّى الطرق. إن إدراك معاني نظام الشمولية والإلمام بها، والاطلاع بشكل خاص على مؤسسته العظمى المتجسّدة بمعسكرات الاعتقال، هي وسيلة النجاة الأولى للسجناء. ولكن هناك المزيد، إعطاء فكرة للعالم الخارجي عن المعسكرات، وعما يجري بداخلها هو أفضل طريق للوقوف بوجه هذا النظام؛ و لكن لا بد من تقديم التضحيات لنيل هذا المرام. لهذا السبب كان سجناء سيبيريا المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة، يعمدون إلى قطع إصبعهم وتعليقه بجذع شجرة ثم رميه في النهر؛ هذه الطريقة كانت أكثر تأثيراً من رمي الزجاجة في البحر، إنها رسالتهم إلى من يكتشف وجود هذا الجذع لمعرفة أي نوع من الحطابين قام بقطع هذه الشجرة. فالمعلومة التي ستنتشر وفق هذه الطريقة هي التي ستنقذ حياة البشر. ففي صيف عام ١٩٤٤، لم تكتمل عملية نفي اليهود من هنغاريا بسبب تمكّن سجينين هما (فربا و ويتزلر **Vrba & Wetzler**)من الفرار من (أوشويتز) وإرسال تقرير عن الأحداث التي تجري في الداخل. ولكن لا يخلو مثل هذا العمل من المخاطر، فقد أعيد "أناتولي مارتشينكو **Anatoly Martchenk**" [9] السجين السابق في معسكر (غولاغ **Goulag**)إلى المعتقل من جديد بسبب الشهادة التي أدلى بها، وكان آخر عهده بالحياة هناك.

ومن هنا، أصبحنا ندرك بسهولة لماذا تتم إحاطة الذاكرة بتلك الهالة من النفوذ في نظر أعداء نظام الشمولية، ولماذا يُصنّف كل عمل يذكّر بالماضي، مهما كان متواضعاً، على أنه تصدّي لنظام الشمولية (قبل أن يتم احتكاره من قبل منظمة مناهضة للسامية، فالكلمة الروسية "**pamjat**"والتي تعني "الذاكرة" كانت عنواناً

لسلسلة تقارير نشرت في صحيفة "ساميزدات Samizdat"، حيث إن إعادة إحياء الماضي تعتبر كعمل مناهض للسلطة). ففي الدول التي يسود فيها الحكم الديمقراطي، يمكن سبر الماضي والاطلاع عليه دون الخضوع للتحكّم المركّز، وهذه من الحريات التي لا يمكن التصرف بها، تماماً مثل حرية الرأي والتعبير. فهي ضرورية جداً للاطلاع على الصفحات السوداء لماضي تلك الدول نفسها. فالتاريخ الاستعماري لفرنسا، على سبيل المثال لم يتم تدوينه بالشكل المرضي، ولكن لا يوجد أي مبدأ يعارض ذلك. بينما في الفترة التي تلت الحرب مباشرة، كانت هناك محاولات للتخفيف من الدور الذي لعبه "فيشي Vichy" خلال الحرب العالمية الثانية، لإضفاء بعض اللمسات الجمالية عليه. أما اليوم، فقد أصبح من الممكن تذكير العالم بأفعاله وتحليلها دون مواجهة أية عقبات سياسية ذات مغزى. فمن باب أولى إذاً أن يتم البحث في ماضي الأنظمة الشمولية. ومن بين جرائم القرن العشرين، يمكننا الإحاطة بتلك التي نفذها النظام النازي دوناً عن غيره، حيث إننا نمتلك الوثائق الكافية ضده. أما الجرائم الشنيعة التي قام بها النظام الشيوعي، فالعالم لا يذكرها بمجملها ولكنه لا يجهل تفاصيلها، كما حصل غداة الحرب العالمية الثانية. "فالكتاب الأسود للشيوعية"، حققت مبيعاته رقماً قياسياً.

بسبب ما تقدّم، لا يبدو وضع الذاكرة في المجتمعات الديمقراطية مضموناً بشكل نهائي. فتحت تأثير بعض المؤلفين الموهوبين الذين عاشوا في الدول التي يحكمها نظام الشمولية، انتشرت في السنوات الأخيرة حركة تقييم للذاكرة، مع ما يواكبها من اتهام النسيان خارج نطاق النص الأصلي، أي تم تشويه الحقائق. وغالبا ما نسمع في أيامنا هذه نقداً موجهاً للديمقراطيات التحررية في أوروبا الغربية و حتى في أميركا الشمالية، متهمين إياها بالمساهمة في إضعاف الذاكرة، وتدعيم سلطة النسيان. إننا في اندفاعنا الجامح والذي يزداد يوماً بعد يوم، نجد أنفسنا معرّضين لنسيان المعلومات التي عرفناها وبنفس السرعة التي تلقيناها فيها؛ فتتقطع بذلك صلتنا بماضينا مع كل ما يحمله من تقاليد، وقد أرهقتنا متطلبات المجتمع الفارغ؛ فأصبحنا نفتقر إلى حب الاطلاع الذي يغذي الفكر، وإلى الاهتمام بالأعمال

الأدبية الغابرة والشهيرة، عندئذٍ سيغمرنا شعور الاعتزاز بالنفس الآني مع ارتكابنا لجريمة النسيان. وهكذا، فإن شعوب الدول ذات الأنظمة الديمقراطية تجد نفسها مُساقة، على غرار شعوب الأنظمة الشمولية، إلى عصر الهمجية، ولكن بطريقة أقل عنفاً وأكثر فعالية، فالأنظمة الديمقراطية لا تثير روح المقاومة لدى شعوبها، بل تدفعها برضاها للمضي في طريق النسيان.

عندما نطلق الأحكام العامة بهذه الطريقة، يصبح الإطراء غير المشروط على الذاكرة، والذبول المفتعل للنسيان بدورهما، أمران مريبان. فالشحنة الانفعالية التي تتعلّق بكل ما يمت بصلة إلى ماضي هذه الأنظمة، ضخمة؛ والذين يشعرون بها يجتنبون الخوض في تقديم التفسير، كذلك الدعوة إلى التحليل والتي تسبق إصدار الأحكام. بيد أن رهانات الذاكرة أهم من أن تترك في مهب ريح الحماس أو الغضب. لذا يفترض البدء بالتعرّف إلى السمات الهامة لهذه الظاهرة المعقدة، المتمثلة باستمرار الماضي في الزمن الحاضر.

المراحل الثلاثة

تركت لنا أحـداث الماضي نوعين من الأثر: أولهـمـا ونطلق عليـه اسم "فـقـدان الذاكـرة" فهـو في أذهان البـشـر؛ ويأتي الثـاني على شكل أحداث مـادية في العـالم: كالبصـمـة، والأثر، والرسالة، والمرسـوم (فالكلمـات هي بحد ذاتها أحـداثٌ). وتشتـرك هذه الآثار المختلفة بسمات متقاربة، فهي أولاً لا تشكّل سـوى جزء يسير مـن أحداث الماضي، أما الباقي فقد اندثر؛ ثم إن عملية اختيار هذا الجزء اليسير المخزون في الذاكـرة ليس نتاجـاً لقـرار إرادي بالضـرورة، إنما يأتـي عن طريق الصـدفـة والدفع اللاإرادي في عـقل الفـرد (نسـتثني هنا طغـاة العـصـور السـابقـة أو الحـديثـة الذين يحرصون على التحكم بهذا الاختيار المفروض). فثوران بركان فيزوف (**Vésuve**) أدّى إلى تدمير الحياة في بعض المناطق المتاخمة له، تاركاً بعض الآثار إلى الأبد؛ ولكنه لم يؤثّر على بعض القرى والمدن التي دخلت في الحـال، في طي النسيان. والأمـر يقـاس بالنسـبـة للأفراد: سـواء سيطر علينا الندم أو لم يسيطر، فـإننا لا نختـار أن نتذكر الماضي أو أن ننسـاه. ومـهـمـا بذلنا من جـهـد لطرد بعض الذكـريات، فـإنهـا تـعـود لتستـحـوذ علينا في أثناء حـالات الأرق التـي تنتـابنا. لقـد أدرك القـدمـاء اسـتـحـالـة سيطرة الإرادة على الذاكرة؛ ويقـول السيـاسي والخطيب الرومـاني "سيـسـرون **Cice-ron**"أن "تيـمـيـسـتـوكل **Themistocle**"[1] الشـهـيـر بقـدرتـه على الحـفـظ، كان يشكو من حفظه للأمور التي لا يريد حفظها، بينما لا يستطيع نسيان ما يريد نسيانه **[10]**.

وإذا عـمـدنا إلـى إحيـاء الماضي في ثنايا الحـاضـر، فإن هـذا العمل سـيـتم وفق مراحل عديدة. من الناحية العملية تمتزج هذه المراحل ببعضها، أو تتبع بعضها بشكل عشوائي؛ وسأوردها هنا كل على حدة بهدف التوضيح.

توطيـد الأحـداث. إنه أسـاس البنيـان اللاحق. فـدون هذه الخطوة الأولـى، لن نتمكّن حتى من الحديث عن أي عمل يكتنفه الماضي. قبل أن نتسـاءل عن أي شيء،

(١) القائد ورجل الدولة اليوناني (المترجم).

يجب الإلمام من أين أتى كشف حساب دريفوس[١]؟ وهل كان خائناً أم لا؟ من الذي أمر بإطلاق النار في غابة (كاتين **Katyn**)هل هم الألمان أم الروس؟ وغرف الغاز، لمن كانت مجهّزة؟ هل لإعدام الرجال أو البق والقمل؟ هنا تكمن الحدود الثابتة بين المؤرخين ورواة الأساطير الخرافية. ويطبّق الأمر نفسه في حياتنا اليومية إذ لا يصعب علينا التمييز بين الشهود الذين يمكن الوثوق بأقوالهم والشهود المهووسين بالكذب. ففي المحاور الخاصة كما في المحاور العامة، تتم ملاحقة وإبعاد الأكاذيب والتزوير والأمور المحبوكة بلا هوادة، وعندما يتعلّق الموضوع بإعادة إحياء الماضي، لا يجدر بنا أن نكتفي فقط بدعم معتقداتنا الخاصة.

لهذا السبب، لا يكفي النبش عن هذا الماضي و تسجيله بشكل آني في الحاضر. ففي كل الأحوال، لا يبقى من الماضي إلاّ آثار متفرقة، سواء كانت مادية أو نفسية، فبين الأحداث بحد ذاتها وبين الآثار التي تخلّفها، هناك مرحلة اختيار وتصفية تخرج عن نطاق سيطرة إرادة الأفراد. ثم يضاف إليها مرحلة اختيار وتصفية أخرى، عن إدراك وإرادة هذه المرة؛ فمن بين الآثار التي خلفها الماضي، نُبقي ونحتجز بعضها فقط، إيماناً منا بأنها جديرة بالاستمرار لأسباب معيّنة، دوناً عن غيرها. ثم يتبع ذلك إجراء أخير يكمن في التنسيق وتدرّج الأحداث التي تم اصطفاؤها، فيتم إبراز بعضها، وتنحية البعض الآخر.

يمكن أن تتوقف عند هذا الحد في استعادتنا للماضي، أي في المرحلة الأولى. وخير شاهد على عملية الاصطفاء هذه وإعادة ترتيب الأحداث، مثالٌ مميَّز تم اقتباسه من فرنسا: إنه "كتاب مذكرات لليهود المبعدين "، الذي نظّمه "سيرج كلارسفيلد **Serge Klarsfeld**" .فقد أراد جلادو النازية مَحْق ضحاياهم دون ترك أي أثر لهم؛ ولكن ثمة مذكرة وثّقَتْ، وبعفوية مؤثرة، أسماء الأشخاص، والأماكن وتواريخ ولادتهم، وتواريخ ترحيلهم إلى معسكرات الإبادة. فردّت هذه المذكرة الكرامة لهؤلاء الذين أبيدوا. لقد انتصر بذلك الموت على الحياة، في حين ربحت الذاكرة معركتها ضد العدم. وهناك مثل آخر مشابه، هو نشر الوثائق عام ١٩٩٧، الخاصة بمجزرة

(١) ضابط فرنسي من أصل إسرائيلي، اتُهم خطأً بالتجسس، ثم عفي عنه ورُدَّت إليه حقوقه (المترجم).

(كاتين)، فلقد تم إعدام كافة الضباط البولونيين السجناء في عام ١٩٣٩، دون محاكمة؛ كان من أبرز من ساهم في نشر هذه الوثيقة[11] مساعد الرئيس "غورباتشوف Gorbatchev"، ويدعى "ألكسندر ياكوفليف Alexander Yakovlev"، فقد وطّد بفعلته هذه أركان الحقيقة، بغض النظر عن المعنى السامي لهذا الحدث أو لما سيترتب عليه من ردود أفعال؛ إن مجرد القيام بهذا العمل هو هدف جدير بالتقدير.

أما في البلاد التي يسود فيها الحكم الديمقراطي، فقد رأينا أن هذه المرحلة الأولى للبحث في الماضي لا تخضع لأي نوع من أنواع الضغط. ولا يحق لأية جهة عليا في الدولة أن تعارض عملية البحث عن الحقيقة في الماضي دون الرجوع إليها؛ ويعاقَب كل من يرفض الانصياع للنص الرسمي كما ورد. ويتعلّق الموضوع أيضاً بتعريف الحياة في النظام الديمقراطي، حيث يحق للأفراد تماماً كما يحق للجماعات (وهذه هي استقلالية الحكم) اطلاعهم على الماضي، وهذا يتضمّن الإلمام بتاريخهم وعرضه على الآخرين؛ ولا يحق للسلطة المركزية ردعهم أو التصريح لهم بذلك. عندما تنطوي الأحداث التي يعيشها الأفراد أو الجماعات على طبيعة استثنائية أو مأساوية، يتحول هذا الحق إلى واجب: واجب التذكّر والإدلاء بالشهادة.

ويترتب على ذلك نتيجةٌ هامشية ألا وهي أن سن القوانين في موضوع توطيد الأحداث يُعتبر أمر تعسّفي. ولهذا، ومع أنه ينطلق من نوايا حسنة، فقد تمّ التنديد بالقانون الذي شرّعه "غايسو Gayssot"والذي بموجبه يعاقب الهذيان السلبي. فالقوانين السابقة كانت تسمح بمعاقبة التشهير، أو الحض على الحقد العرقي، إذاً فقد شُرِّعت لحماية الناس؛ وبالمقابل، فالمحاكم ليست مؤهّلة لتوطيد الأحداث التاريخية، مهما كانت خطيرة كجرائم الأنظمة الشيوعية، أو السلطة النازية أو الدول الاستعمارية.

اعتماد المعاني. إن الفرق بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية بغرض التعرّف إلى الماضي، هو الفرق بين إنشاء المحفوظات وتدوين التاريخ بكل ما في الكلمة من معنى. فما أن ننتهي من توطيد الأحداث، حتى ننتقل إلى مرحلة التفسير، أي إنشاء الصلة بينها، ثم الوقوف على الأسباب والنتائج، لإنشاء أوجه التشابه، والتسلسل والتناقض. فهنا تعترضنا مرة أخرى إجراءات الانتقاء والتنسيق. بيد أن المعيار الذي يسمح

بالحكم على هذا العمل قد تغيّر. فبينما كان اختبار الحقيقة (التأكد من وقوع هذه الأحداث فعلياً) يسمح بالفصل بين المؤرخين ورواة الأساطير الخرافية، بين الشهود المميزين و الشهود العاديين، أصبحنا الآن نمتلك اختباراً جديداً للتمييز بين أهل الثقة من المؤرخين والمؤرخين المتطفلين، بين الشهود اللامعين والشهود الرديئين. بإمكاننا هنا إعادة استخدام تعبير "الحقيقة"، شرط إعطائه منحىً جديداً؛ فالموضوع لا يتعلّق هنا بحقيقة التنسيق والتطابق، بين الخطاب الحاضر والأحداث الماضية، "كحادث إعدام الضباط البولونيين والبالغ عددهم أربعة آلاف وأربعمائة ضابط رمياً بالرصاص على يد فرق البوليس السري الشيوعي في غابة كاتين عام ١٩٤٠". ولكننا نسعى وراء الحقيقة التي تكشف الأسرار والتي تسمح بالاطلاع على ماهية الحدث وتحليل معناه. فلا يُشترط بكتاب التاريخ القيّم أن يحوي فقط على المعلومات الصحيحة، بل يُفترض به أن يطلعنا أيضاً على الحافز النفسي للفرد وللحياة الاجتماعية. وبطبيعة الحال، فإن حقيقة المطابقة وحقيقة الكشف عن الأسرار لا تتعارضان فيما بينهما، بل تتكاملان.

ليس بمقدورنا تقييم هذا الشكل الجديد للحقيقة وفقاً للطرق التقليدية. يمكن أن يكون توطيد الأحداث ثابتاً و نهائياً، في حين يرتبط المضمون بموضوع الخطاب، لذا فمن الممكن إجراء بعض التعديل على التاريخ. قد يكشف توطيد الأحداث صحة أو خطأ التاريخ المدوّن، وعليه يأتي التفسير غير مقنعٍ، فهو إذاً قابل للنقض، ولكنه لا يقدّم من الناحية الأخرى، تفسيراً أفضل. إن موضوع تحديد كنه ستالين فيما إذا كان عبقرياً، أو طاغية، أو فاسداً، أمرٌ لا يتعلّق بإثبات الأحداث. فالتفسير الناجح والصحيح لا يمنع ظهور تفسير آخر أفضل منه في يوم من الأيام. ولكننا لا نملك أداة لإجراء قياس موضوعي لإطلاق الأحكام حول "حماس" هذا التفسير التاريخي أو ذاك. يُطبّق هذا الكلام على المؤرخين والروائيين والشعراء، فالمؤشر الذي يدل على بلوغهم عمق الحقيقة يتجسّد في إقبال القرّاء على كتبهم، سواء كانوا قريبين أو بعيدين، حاضرين أم لاحقين؛ إن المعيار الأسمى لحقيقة الكشف عن الأمور التاريخية ينحصر بين شخصين: الكاتب والقارئ، ولا علاقة له بالمراجع. لهذا السبب، فإن غياب الحقيقة التي تستند إلى الأحداث لا يفرض اعتماد كافة التفسيرات.

إن من أهداف إنشاء المعنى فهم الماضي؛ والتصميم على فهم - الماضي أو الحاضر- هو أمر منوط بالإنسان. إذاً كيف نؤكّد هنا أنها ميزة خاصة بالجنس البشري؟ يختلف الإنسان، عن الحيوان بكونه يملك الوعي لذاته؛ هذا يعني أنه مزدوج من ناحية تركيبته، ففي داخله جزء لا ينقطع عن التفكير بما يدور من حوله، هرباً من التفكير بالأمور التاريخية الجوهرية. هذه السمة التي تزوده بالقدرة على حرية التصرف، هي التي تمنحه موهبة التأويل. فكلما اهتم الإنسان بتنشيط الوعي لديه لإستيعاب العالم الخارجي، ومن ثَمَّ فهم ما يجول في ذهنه، كلما أثبت إنسانيته.

ونتساءل هنا هل يُصح بمتابعة الطريق بحثاً عن الفهم والإدراك عندما يكون هدف المعرفة آلاماً بلغت حد التطّرف، كتلك التي سادت في القرن العشرين؟ ألسنا نجازف في التخفيف من وطأة هذا الألم في محاولتنا لتفهمه؟ ها هو "بريمو ليفي"، الشاهد الصادق، يكتب عن معتقل (أوشويتز) فيقول: " ربما لا يجدر بنا فهم الأمور التي جرت هناك، حيث أن فهمها يكاد يبررها" [12]. إن إصدار مثل هذا التحذير عن إنسان معروف بالنزاهة والاستقامة، يستحق التوقف عنده. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا التحذير لم يقف حائلاً دون محاولة "ليفي" نفسه الفهم واستخلاص العبر من تجربته في المعتقل، ودام ذلك خلال فترة طويلة من حياته. وفي فترات أخرى يقول بكل قوة وصراحة: "بالنسبة لرجل علماني مثلي، المهم هو محاولة الاستيعاب، ثم نقل ما فهمناه إلى الآخرين". وبشكلٍ أدق، السعي إلى التحرر من أوهام تلك الصورة المانوية (١) للعالم التي تجسده باللونين، الأبيض والأسود [13]. ومن ناحية أخرى، حري بنا أن نتساءل من هو المستهدف من هذا التحذير؟ إذا كان المستهدف هو "ليفي" نفسه أو أولئك الناجين من المعتقل، فالأمر عندئذٍ يستدعي مبررات، إذ لن يُطلب من الضحايا الذين قضَوا محاولة فهم مقاصد جلاديهم، كما لن يُطلب من النساء اللاتي اغتُصبِّن محاولة فهم نفسية الفاعلين المجرمين بحقهنّ. فالإدراك في هذه الحالات، يوجِب الاقتراب من شخصية الجلاّد، حتى لو كان ذلك بشكلٍ جزئي ولفترة مؤقتة، وهذا قد يقود إلى تحطيم الذات.

---

(١) المانوية هي الدين المسيحي الجديد الذي ابتدعه "ماني بن فاتك"، حيث يقول فيه إن للعالم مبدأين: النور وهو مبدأ الخير، والظلمة وهي مبدأ الشر (المترجم).

ويبقى السؤال مطروحاً أمامنا، نحن الذين لم نتعرّض لمواقف الضحايا السابقين، هل يمكن أن نشعر بالأذى والألم في أقصى حدودهما دون أن نمر برحلة الجحيم التي عاشها المعتقلون؟ كما يمكن إعادة البحث في العلاقة الآنية التي أنشأها "ليفي": "يكاد الفهم أن يكون تبريراً". إن المفهوم العصري للعدالة الجنائية يستند إلى مسلمة مختلفة. فيجب إلزام كل من القاتل، والجلاّد، والمغتصب تسديد ثمن جريمتهم. إلاّ أن المجتمع لا يكتفي بالاقتصاص منهم، بل يحاول اكتشاف سبب قيامهم بتنفيذ فعلتهم، محاولةً منه لمعالجة الأسباب وتجنباً لوقوع جرائم أخرى مشابهة. إن بلوغ هذه الغاية ليس بالأمر اليسير بالنسبة للمجتمع، ومع ذلك فإنه يكلّف نفسه عناء هذه المهمة. فإذا كان الفقر هو الدافع لارتكاب الجريمة، يحاول المجتمع القضاء عليه؛ أما إذا كان الدافع هو الفراغ العاطفي أثناء فترة الطفولة، فيُلجأ إلى العناية بالأطفال اللقطاء أو المقهورين بشكل أفضل. لهذا السبب، فالعدالة الحديثة لا تلغي أبداً فكرة حرية الإنسان وبالتالي مسؤولية الفرد عن أفعاله، إلا في حالات المصابين بمرض عقلي، فالسبب لا يؤدي أبداً بشكل آلي إلى نتيجة (كما قال روسو: "بوسع المرء أن يوافق أو أن يقاوم"[14])؛ وكنتيجة لذلك، فإن إدراك الشر وفهمه لا يعنيان تبريره، ولكن عندما نفهم الشر فإننا نملك الوسائل لمنع عودته مرة أخرى.

وتبرز مشكلة أمام من يحاول "الفهم" و"إطلاق الحكم". نحن عندما نقضي في أمرٍ ما، فإننا نفصل بين الفاعل الذي يُطلِق الحكم، والشيء الذي يقع عليه الحكم؛ بينما الإدراك هو الاعتراف بأننا نشترك في انتمائنا إلى أصل إنساني واحد. ويختلف مستوى هذين الفعلين: فنحن نحاول فهم البشر القادرين على القيام بأعمال عديدة، في حين نطلق الأحكام على الأعمال المنفذة نسبة إلى الزمان والمكان. كوننا من طينة واحدة، هذا لا يعني بالضرورة أننا يجب أن نتجاهل الهوّة التي تفصل بين الفعل الممكن والفعل الحقيقي، كلنا يؤْثِر ذاته، ولكننا لسنا عرقيين، فمن بين العرقيين، ينفرد النازيون وحدهم، دوناً عن غيرهم في أوروبا، بالتطرف الذي تجسّد في الإبادة العنصرية. فلدى كل البشر طاقة كامنة، قادرة على إلحاق الضرر بمن هم حولهم، والقيام بأعمال شريرة، ولكنهم في الحقيقة ليسوا كلهم كذلك، حيث أنهم لم

يتعرضوا للتجارب ذاتها. إن قدرتهم على الحب والحنان والحكم الخُلُقي إما أن تكون قد لاقت الرعاية فازدهرت، أو أن تكون على العكس، قد أُخمدت وتلاشت.

هذا هو الفارق بين "بولا ليفزيك **Pola Lifszyc**"شابة تقيم في الحي اليهودي المنعزل في فارسوفيا[١]، عندما تركب بملء إرادتها في القطار الذاهب إلى (تريبلينكا) لمرافقة والدتها [15]، وبين "فرانز ستانغل **Franz Stangl**[16]" الذي يرأس أنشطة معتقل الإبادة فيه، ويحاول التركيز في أساليب عمله كما لو أنه يريد دحر أهداف عمله. هناك نوعان من البشر: نوع قادر على القتل والتعذيب وآخر غير قادر. لذا سنتجنب التحدث عن "تفاهة الألم"، كما فعل "حنا آريند" في ملاحظاته حول قضية "إيتشمان **Eichmann**"، ليس فقط لأن الضرر الذي ألحقه بالبشر كلٌّ من "إيتشمان" و"ستانغل" لم يكن بالأمر العادي، ولكن عندما شارك هذان المجرمان بأعمال الإعدام بحق آلاف البشر الأبرياء، فإن فعلتهما كانت متعمدة. هنالك فارقٌ إذاً وهو مصيري، وهذا ما يبرر عمل "ليفي" في التربية والتصرّف العام طوال حياته. فمهما كان التشابه كبيراً بين البشر، إلاّ أن الأحداث فريدة لا تتكرر؛ والتاريخ عبارة عن مجموعة من الأحداث، علينا تأملها للتمكن من إطلاق أحكامنا بصددها.

ومن جهة أخرى، إن اقتصارنا على المسؤولية الشرعية والخُلُقية ليس بالأمر الكافي؛ لذا يجب علينا أن نعترف بانتمائنا إلى هذه البشرية، ونسأل أنفسنا عن النتائج. وانطلاقاً من هذا البعد الجديد، حتى لو لم نفقد استقلالنا كأفراد، نستطيع أن نعترف أنه لا يوجد انقطاع بين ذاتنا ومن هم حولنا (لأن الآخرين يعيشون فينا ونحن نعيش من خلالهم)؛ كما لا يوجد انقطاع بين الشر المتطرّف الذي يزاوَل داخل معسكرات الاعتقال و إبادة الجنس البشري، وبين الشر الاعتيادي الذي ألفناه كلنا. نحن بأمسّ الحاجة لهذه الرؤية المزدوجة، وبمقدورنا أن نقوم بدور المنصف للأفراد، والمدافع عن الجنس البشري، بالتناوب.

ماذا يترتب علينا أن ندرك ونفهم بالضبط حيال ظهور الشر المتطرّف الذي شهدناه في القرن العشرين؟ إن الإجراءات السياسية، والاجتماعية، والنفسية هي

(١) مدينة في بولونيا (المترجم).

التي تقود خطانا. فضمن الحدود التي رأت الضحايا فيها إرادتها مسلوبة، لا يسعها أن تطلق تسمية الفهم على ما حصل معها. فالمرأة التي تعرضت للإغتصاب يجب أن تبادَر بالشفقة، والعزاء، والرعاية، والحب؛ فكيف نحاول تفهّم التصرّف الصادر عنها مقابل العنف الذي ألّم بها؟ وينطبق الأمر نفسه على شعب بأسره، لا يوجد شيء "للفهم" في معاناة وعذاب فلاحي أوكرانيا الذين أودى الجوع بحياتهم، أو في الأطفال والشيوخ اليهود الذين تم إلقاؤهم في غرف الغاز ليموتوا خنقاً؛ تتنحى عملية الفهم هنا أمام الشعور بالتعاطف. لكن الأمر ليس سيان عندما نريد مجابهة الشر. يُفضَّل حينئذٍ عدم تعليق الأسئلة السياسية البحتة "باستبدال تأمل الشر بمشهد التعاسة"، حسب ما يقول "روني برومان **Rony Brauman**"[17]. ما نحن بصدد فهمه الآن لا ينحصر فقط بالجرم الذي عانت منه الشعوب وتحملته: جرم أشرار البشر، إنما ردة فعل الأفراد الذين بادروهم بالقتال والمقاومة، في محاولة لإنقاذ حياة البشرية.

يمكن للعقل البشري أن يذهب بإدراكه إلى أبعد من هذه الحدود، ولكن ذلك لا يعني إلى "نهاية المطاف"؛ فمرة أخرى يواجه هذا الاستيعاب حدوداً عفوية صادرة عن الجنس البشري، إنها القدرة على التصرّف بحرية، رغم كل الأسباب والتوقعات. يكتنف سلوك الأفراد جزءاً صلباً من الغموض- هذا ما يفسّر كونهم بشراً. ومن جديد، فالأمر يشمل الأفعال التي يتحمّل نتائجها الأفراد، كما يشمل مصير شعوب برمتها. طالعتُ في إحدى الصحف أنه تمّ العثور في إحدى الضواحي السكنية في باريس، على جثث هامدة لإحدى العائلات، الأب والأم وطفليهما؛ وبعد التحقيق، تبيّن أن الزوجة قامت بخنق زوجها وطفليها بعد أن حقنتهم بجرعة كبيرة من المخدرات، ثم عمدت إلى شنق نفسها. لم يكن شيء في حياة هذه العائلة يدل على إمكانية وقوع مثل هذه المأساة، فكل من عرفهم كان يرى فيهم مثالاً للعائلة السعيدة والناجحة. أليس في الأمر غرابة وإبهاماً أن تقوم هذه الأم بخنق أولادها؟ وإذا انتقلنا إلى صعيد آخر، يواجهنا السؤال نفسه: هل نستطيع "استيعاب" التصرف الذي أدّى إلى اكتشاف ملايين الجثث في (أوشويتز)؟ وهل نستطيع "إدراك" تصرّف "ستالين"، الرجل

الحديدي، عندما قرر أن هناك ملايين من الأوكرانيين يستحقون الموت؟ فالتصرفات التي أدّت إلى تلك النتائج المريعة، ليست بالضرورة مخالفة للعقل كما سبق وأثبتنا ذلك؛ ولكننا لسنا على ثقة تامة من أن معرفتنا بالأفراد والمجتمعات البشرية تسمح لنا وكما يقال "بتوليد" هذه الأحداث، أي بجمع مكوناتها بهدف إعادتها بصورة آلية.

من خلال ملاحظتنا للمراحل الأولى من عملية التذكر، نجد أنفسنا أمام نتيجة حتمية وهي أن الذاكرة لا تتعارض أبداً مع النسيان. إن التعبيرين المتناقضين، هما المحو (أو النسيان) والمحافظة؛ وتأتي الذاكرة لتلعب دور التداخل فيما بينهما. إن استرجاع الماضي كاملاً أمرٌ صعب المنال. ولو حدث ذلك، لأصبح الحال مرعباً، كما أشار إلى ذلك (بورج **Borges**) في قصته (**Funes et memorioso**). فعملية الاختيار من اختصاص الذاكرة، التي تقوم بالاحتفاظ ببعض سمات الأحداث، وبنسخ بعضها الآخر بالكامل أو تدريجياً، ثم ينتهي بها الأمر إلى نسيانها. لهذا السبب عندما نطلق تسمية "الذاكرة" على تلك القدرة التي تحفظ بها أجهزة الحاسوب المعلومات فإن عملية الحفظ هذه تفتقر إلى ميزة أساسية ألا وهي النسيان.

أما عملية الحفظ دون انتقاء فهي ليست من اختصاص الذاكرة. إننا لا نتهم جلادي النازية والشيوعية بأنهم يحتفظون ببعض ملامح الماضي وينسون البعض الآخر -فهذه ميزة كل البشر- ولكننا نأخذ عليهم استئثار الحق في التحكم باختيار أحداثٍ معينة دوناً عن غيرها. وبشكل تناقضي يمكننا أن نجزم أن الذاكرة "هي" النسيان: نسيان جزئي وموجّه، نسيان لا بد منه.

وضع في الخدمة. نقصد من خلال هذا التعبير الخالي بعض الشيء من الاحترام، مرحلة ثالثة في إحياء الماضي ضمن الحاضر، كذريعة في سبيل تحقيق أهداف حاليّة. فبعد أن تعرّفنا إلى الماضي وقمنا بترجمته، نصل الآن إلى المرحلة الثالثة والتي تتجسّد باستخدام هذا الماضي. هذا الإجراء تتبعُهُ فئة خاصة من الناس، إذ تسخّر الماضي في خدمة احتياجاتها الحاضرة، وهو أيضاً منهج رجال السياسة، الذين يحيون أحداثاً غابرة للانطلاق منها إلى أهدافٍ جديدة.

أما المؤرخون المحترفون، فإنهم يرفضون بصورة عامة، تصنيفهم ضمن هذه الفئة، إنهم يفضلون إنهاء مهمتهم بعد إحيائهم لأحْداث الماضي بكل ما تتضمنه من وقائع مادية ومعنوية. فمثل هذا الموقف رافض لأي استخدام محتمل، ولكنه في اعتقادي، حالة استثنائية. إن العقل لا يدرك أعمال المؤرّخين التي لا ترتبط بالقيم. حيث أن هذه الأخيرة هي التي تملي على المؤّرخ سلوكه، فإذا طرح بعض الأسئلة، وأحاط ببعض المواضيع، فذلك يعني أنه يعتبرها ذات فائدة، وعلى درجة من الأهمية، بل وتفترض عملية فحص ضرورية. بعد ذلك، وتبعاً لهدفه، يقوم بانتقاء المواضيع الأكثر إيحاءً من خلال المعطيات التي استنبطها من المحفوظات والشهادات والأعمال الأخرى، ثم ينظّمها وفق ترتيب ملائمٍ لتخدم البرهان الذي تقدّم به. وأخيراً، يقترح التوجيه العلمي الذي يمكن استخلاصه من هذا المقتطف التاريخي حتى لو لم تأتِ "العبرة" منه صريحة بنفس الدرجة التي أتى بها الراوي. فالقيم موجودة في كل مكان؛ وهذا لا يجرح إحساس أحد. فمن يقول قيم، يقول أيضاً الرغبة بالتصرّف في الحاضر، وبتغيير العالم وليس فقط التعرّف إليه.

إن الاستفادة من الماضي هي الدافع العلني لتوجهات السياسة، وإلى جانبها أيضاً التوجهات التي تتزيّن بورقة العلم الرابحة، ولكن هذا يجري بطريقة خفيّة. فما يميّز المؤرخين عن أولئك الذين يُعِدّون الخطابات هو بالدرجة الأولى المطالبة بالحقيقة والجمع الحثيث للمعلومات؛ لكن هذا التوجّه لا يلغي استخدام علمهم ومعرفتهم. من يعتقد أن هذا الاستثناء أمر طبيعي فهو يعاني من بعض الشفافية الملائكية، ويسلّم بالمعارضة الخدّاعة. فقد لاحظ "دافيد روسيه" عندما كرّس وقته للجمع الدقيق للوثائق المتعلقة بمعسكرات الاعتقال [18] "أن العلم لا يحقق مكسباً من جراء حياد اللغة الظاهر". إن عمل المؤرّخ، شأنه كأي عمل حول الماضي، لا ينحصر فقط بإثبات الوقائع، بل أيضاً باختيار الأبرز منها والتي لها مدلول، ثم بإنشاء الصلة بينها؛ وهذا العمل المتضمن الاختيار والتنسيق يدعمه ليس فقط البحث عن الحقيقة، إنما أيضاً البحث عن الإصلاح والخير. فالعلم لا يمتزج حتماً بالسياسة؛ ولكن هذا لا يمنع أن يكون للعلوم الإنسانية أهدافها السياسية الخاصة بها، التي قد تخدم البشرية أو تدمرها.

أما من الناحية التطبيقية، فالمراحل الثلاثة التي ذكرتُها، موجودة بشكل متزامن؛ فغالباً لا يتم البدء بجمع مجرّد للوقائع، بل بمشروع الاستخدام. وينطلق الفرد أولاً من تصوّر خطة في الحاضر، ثم يبدأ بعملية التنقيب في الماضي عن أمثلة قادرة على جعل مشروعه شرعياً. أو بالأحرى، فإن هذه المراحل الثلاثة لأي عمل تاريخي لا تتواجد إلاّ مع بعضها، تماماً كأية عملية انبعاث للماضي. وبما أن اختصاص الذاكرة يكمن في الاختيار، فقد توجّب إيجاد معايير خاصة لعملية اختيار المعلومات التي نحصل عليها. هذه المعايير، سواء جاءت عن حالة وعي أو لا وعي، سيتم توجيهها للاستفادة من الماضي، وفقاً للاحتمالات.

obeikandl.com

شهود العيان، والمؤرخون، ومحيو الذكرى

يمكن تصنيف آثار الماضي ضمن ثلاثة أنواع من الخطابة، من أجل حفظ استمرارها في الحاضر، أشهرها: شهادة الشهود، والمؤرّخون، ومحيو الذكرى.

وأُطلقت تسمية شاهد العيان على الفرد الذي يستدعي ذكرياته لمنح أسلوبٍ، أو بالأحرى معنىً لحياته، فتتشكّل بذلك هويته الشخصية، لأن كل فرد منّا هو الشاهد الوحيد على وجوده الخاص، حيث أنه مسؤول عن بناء صورة لهذا الوجود ناسخاً بعض الأحداث ومبقياً على البعضٍ الآخر، أو مشوهاً أو مكيفاً للمتبقي منها. ويمكن له أن يستعين على ذلك بالوثائق (التي هي الآثار المادية)، ولن يساعده أحد في عمله، فهو وحيد فيه، إذ لسنا مضطرين لتقديم تقارير لأحد عن صورتنا. صحيح أننا نقوم بهذا العمل على مسؤوليتنا، حيث يمكن للنسيان الإرادي أن يولّد الندم؛ كما يمكن لدحر بعض الذكريات أن يؤدي إلى العُصاب. إن مصلحة الفرد هي التي تقوده في بناء هذه الصورة، فهي تساعده على العيش بطريقة أفضل، وتساهم في راحته العقلية ورفاهيته. ولا يحق لأحد أن يفرض الصورة التي نملكها عن ماضينا، حتى لو كانوا كثر؛ بمعنى أن ذكرياتنا غير قابلة للنقض، فجوهرها يأتي من وجودها وليس من خلال الحقيقة التي تدفعنا إليها.

المؤرّخ: إنه يمثّل النظام، هدفه استعادة الماضي وتحليله؛ وبشكل عام، إنه كل إنسان يسعى لإنجاز هذا العمل معتمِداً على الحقيقة الموضوعية كمبدأ منظّم وأفقٍ سامٍ بدل المصلحة الفردية. لقد قام كل من الفلاسفة والمؤرخين أنفسهم خلال القرون السابقة، بتسخير مفهوم الحقيقة لنقدٍ صارم، لكنه مبرر في أغلب الأحيان، وذلك لتذكيرنا بضعف وسائلنا في بلوغ المعرفة، إلى جانب ضعف مداخلات الإنسان الذي يبحث عن هذه المعرفة. وتجدر الإشارة هنا أنه عندما تزول الحدود بين الخطاب الحقيقي والخطاب الخيالي، فعندئذٍ لا يعود هناك أي مبرر لوجود التاريخ.

يبدو الأمر أكثر وضوحاً إذا ما تطلعنا إلى التطبيق. فالمؤرّخ معرّض للوقوع في الخطأ كونه إنسان، كما أنه مقيّد إلى حدٍ ما ضمن الظروف الزمانية والمكانية التي تحيط به، لذا فهو يتميّز بتقديم ما يراه حقيقة حسب روحه وضميره، في حدود إمكانياته. فالمقصود هنا هو الحقيقة المطابقة، حتى لو كان البرهان صعب الإثبات، أي الحقيقة الفاضحة. فالأمور "النسبية" مرفوضة على هذا الصعيد، إذ يكفي أن يخترع المؤرّخ واقعةً ما، وأن يزوّر مصدر المعلومات، لكي يتم استبعاده من الأسرة المهنية بعد وصم أفعاله بالعار. فهو يشبه، في هذه الحالة، عالِم الأحياء أو الفيزياء الذي يقوم بتزوير نتائج تجاربه، فهو ليس أقل قدراً من غيره من العلماء، بدفاعه عن قيم لا تتناسب وقيمنا قد أخرج نفسه على التو، من نطاق العلوم. و كذلك المؤرّخ الذي يخرق متطلبات الحقيقة، فإنه لم يعد ينتمي إلى دائرة المؤرخين، لقد أدخل نفسه ضمن أسرة مروجي الحملات الدعائية.

يبدو التباين الموجود بين الشاهد (عن حياته الخاصة) والمؤرّخ (لأحداث العالَم) مكتملاً؛ فالأول تُحركه مصلحتُهُ الشخصية، أما الآخر فيدفعه حرصه لبلوغ الحقيقة. ومع ذلك، يعتقد الشاهد أن ذكرياته تعود بالفائدة على الصعيد الجماهيري، لذا يجب ألا يحتفظ بها لنفسه. "فشهادته" تأتي كمنافس علني لسرد المؤرّخ. أما المؤرخ، فيأتي موقفه متحفظاً حيال هذه الشهادات، ولو كانت هذه الشهادات شعبية، لأمكن تحملها؛ طالما أنها لم تخضع للفحص التاريخي البحت (وهذا أمر مستحيل)، فالحقيقة التي تحملها في طياتها ليست ذات أهمية كبيرة. ومن جهة ثانية، فإن الموقف الذي يأخذه الشهود من المؤرخين ينمّ عن الحذر حيث أن هؤلاء لم يكونوا موجودين معهم، ولم يحتملوا عذابهم، بل كانوا آنذاك يتنزهون بملابس الرياضة، أو أنهم لم يكونوا قد ولدوا بعد. باستطاعتنا الحد من هذا الصراع الخفي الدائر بين المؤرّخ وشاهد العيان إذا عرفنا أن خطاب الشاهد يدعم خطاب المؤرّخ في البحث عن الحقيقة، حتى لو لم تكن شغلنا الشاغل. ولكن كيف؟

أريد أن أجسّد هذا التكامل بمقتطفات من عملية بحث أجريتها مع شهود عيان سابقين، بمساعدة "آنيك جاكيت **Annick Jacquet**"؛ كان موضوعها التصرّف اليومي

لموقف عظيم [19]، أي خلال احتلال فرنسا بين عامي ١٩٤٠-١٩٤٤ . فالمعلومة التي يزودنا بها التاريخ هي أن الجيش الفرنسي توقف عن القتال بعد هزيمته، مسبباً بذلك الهلع لدى الشعب. وهناك رواية مفصّلة تذكر أنه في اليوم السابع عشر من شهر حزيران ١٩٤٠، انسحب الفيلق السابع من الجيش إلى جنوب من مدينة (بورج Bourges)الفرنسية، وأن هناك فرقة سنغالية أمضت ليلتها في إحدى الغابات، قبل مغادرتها المنطقة في اليوم التالي. وعندما تذكر السيدة (Y.B.) الحادثة، تأتي شهادتها مخالفة لما أورده التاريخ. تروي فتقول أنه خلال تلك الليلة قام الجنود الذين توقفوا في الغابة بإطلاق النار من أسلحتهم لتفريغها. ففزع الجيران وفقدوا أعصابهم نتيجة سماعهم أصوات الرصاص الذي كان ينهال من كل جانب. "لقد أمضوا ثلاثة أيام بلياليها متشبثين ببعضهم البعض. لقد اعتقدنا أنهم سيؤذون أنفسهم، أنهم سيخنقون بعضهم بعضاً. ففرقنا بينهم في الغرف، ولكنهم عادوا في المساء وأمضوا الليل متلاصقين. كانت حفيدتهم الصغيرة والتي لم يتجاوز عمرها الثماني سنوات، تقضي إجازتها معهم، فأدخلوها تحت الفراش كي لا تقع بين أيدي الجنود. وكادت الطفلة أن تموت خنقاً..." أليست تلك القصة مع قصرها، نابضة بالحياة، ومعبرّة عن حالتهم النفسية بنفس مستوى رواية المؤّرخ التي تحكي العموميات؟

إننا على دراية تامة، من خلال كتب التاريخ، أن رجال المقاومة الذين وقعوا في الأسر عاشوا في محنة وعذاب. ولكن بالنسبة للشهود، لا يوجد "رجال مقاومة" بصورة عامة، بل يوجد جماعات وأفراد؛ كما لا يوجد معاناة مجردة، بل هو العطش الرهيب الذي لازمهم أثناء اعتقالهم في السجن. يروي السيد F.B."لقد تبولنا في زجاجة مكسورة، ثم بللنا شفاهنا"، وأضاف السيد (P.S.) "ثم في الساعة التاسعة، أنزلنا الألمان إلى مكان المبولة، ومع أن مياهها كانت خضراء من الطحلب إلاّ أننا لعقنا منها من شدة العطش الذي أصابنا. فلما رأى الألمان هذا المشهد أعطوا لكل منّا فنجاناً من الماء". عندما نستمع إلى تلك التفاصيل التي تحوّل الأمور المجردة إلى حسيّة، نشعر وكأننا عايشناها بحذافيرها.

ينحصر دور المؤّرخين في إعلامنا عن عدد الذين عادوا إلى فرنسا بعد إبعادهم عن البلد، يمكنهم أيضاً ذكر الصعوبات التي صادفوها من أجل دخولهم إليه. يروي لنا السيد (R.M.) قصة أحد المرّحَلين إلى وطنهم. "لقد أقام في المستشفى في مركز إعادة التأهيل، بسبب معاناته من الكوابيس لفترة طويلة. كانت صور العذاب الذي تعرض له تراوده أثناءها. كان جسمه نحيلاً إلى درجة أخافت من هم حوله. لم يكن يذكر شيئاً عن قصة إبعاده. لم يكن يبدو عليه الحقد تجاه الألمان ولا تجاه تلك الحاشية من الفرنسيين التي تعاونت معهم. كان شعره محلوقاً، وكان يأتي إلى الحفل الراقص برفقة شقيقة عشيقته، فتاة تعرّضت لحلق شعرها عند التحرر. كانا يرقصان معاً وهما يضعان رأسيهما الحليقين بجانب بعضهما". إن صور هذين الرأسين الحليقين، الأول على يد الألمان الأعداء، والثاني على يد الألمان الحلفاء، هذا التناقض والتقارب بين هذين الكائنين الذليلين، ألا يشكّل قوة إقناع أقوى من براهين المؤرّخين المطوّلة والمبرهنة؟

لكن هذا لا يستدعي بالتأكيد، وجوب ترجيح رواية الشاهد على رواية المؤّرخ. فبدل تعارض هاتين الشهادتين، نراهما تكتملان. إذا أردنا معرفة تجارب أصحاب الأيديولوجيات المتعارضة عن كثب، ينبغي لنا الاستماع بآن واحد، لرواية رجل من الجيش الشعبي ورجل من المقاومة. وإذا كنا نبحث عن تقييم لهذه المواقف، والنتائج العملية لكليهما، والصلة بين الكلمات والأفعال، وجب علينا الاطلاع على أعمال المؤرخين. وإذا أردنا الحصول على التواريخ والأرقام والأسماء، فإن أبحاث المؤرخ هي الأفضل؛ أما إذا كنا نسعى للانغماس في حياة أصحاب العلاقة أنفسهم، فيتوجب علينا الأخذ برواية الشاهد. و إذا رغبنا بالتعرّف على مصير المبعدين من (كوليما)، فلا ينبغي لنا الاختيار بين التحليل التاريخي لـ "كونكيست **Conquest**"وشهادة "غينزبورغ **Guinzbourg**"، كما أنه لا يتحتم علينا الوقوف في صف "راول هيلبرغ **Raoul Hilberg**"ضد "بريمو ليفي **Primo Levi**"عندما نريد أن نعرف المزيد عن (أوشويتز).

إن عملية إدراج الحياة الماضية في الحاضر بالإضافة إلى الشروط التي يجب أن يتمتّع بها كلٌ من شاهد العيان والمؤرخ، تستوجب وجود طرف ثالث لإحياء الذكرى.

هذا الأخير، على غرار الشاهد، تقوده المصلحة قبل أي شيء آخر؛ ولكنه يُصدر خطابه بشكلٍ عام، كالمؤرخ، ويقدمه وكأنه شمل حقيقة ثابتة، بعيدة عن ضعف الشهادة الشخصية. يطلق على هذه الحالة اسم "الذاكرة الجماعية". ولكن مثل هذه التسمية قد تكون مضلّلة، كما أشار إلى ذلك مراراً "ألفريد غروسر **Alfred Grosser**"[20]، فالذاكرة بمعنى "آثار أمراض الذاكرة"، تكون دوماً فردية؛ أما الذاكرة الجماعية، فهي ليست ذاكرة، بل خطاب متنقّل على الصعيد العام. وهذا الخطاب يعكس الصورة التي يريد المجتمع أو الجماعة داخل المجتمع، إعطاءها عن أنفسهم.

فلإحياء الذكرى أماكنه المفضّلة، ومنها المدرسة (حيث يتم نقل صورة مشتركة عن الماضي)؛ و وسائل الإعلام (كالوثائق أو الأفلام "التاريخية" على شاشة التلفاز)؛ واجتماعات المحاربين القدماء، أو مجموعات مشابهة لهذا النوع؛ كذلك في الحياة السياسية، كالخطابات حول الماضي (بدءاً من خطاب رئيس الجمهورية وصولاً إلى خطاب مختار البلدية)؛ ونقاشات مجلس الشعب؛ والمقالات في الصحف. إن عملية إحياء الذكرى تتغذّى بلا شك، من عناصر يقدمها شهود العيان والمؤرخون؛ ولكنها لا تخضع لتبيان الحقيقة التي تفرض على كل من الشهود والمؤرخين. إن الظروف لا تسمح بذلك، ففي المدرسة ينفرد المعلم دوناً عن الطلاّب باستحواذه على المعلومات وسردها على الطلاب الذين يكتفون بالاستماع وبالتلقّي؛ والمشاهدون صامتون أمام شاشة التلفاز، تماماً مثل الحضور الذين ينصتون لخطاب المختار؛ أما في مجلس الشعب، فلم يكن نواب المعارضة على دراية بأن رئيس الوزراء سيتطرّق إلى صفحة معيّنة من الماضي في هذا اليوم بالتحديد، إنهم لم يعدّوا أنفسهم لمثل هذا، فآثروا بالصمت.

إنطلاقاً من هذا الواقع، يمكن للشهود والمؤرخين أن يكملوا بعضهم بعضاً، أما المؤرخ ومحيي الذكرى، فإن بينهما خلاف كبير حول الأهداف والسبل، وهذا ما يباعد بين خطوات كل منهما. ولتوضيح هذه النقطة، نرى أن محيي الذكرى يرغب بتحقيق الفائدة من موضوعية خطابه (فموضوع خطابه لا يمت بصلة إلى شخصه) ليضفي عليه طابعاً محايداً، إذاً حقيقياً. ولكن لا شيء من هذا يحدث. فالتاريخ يزيد من تعقيّد اطلاعنا على الماضي؛ بينما إحياء الذكرى يبسّطه، إن من أسمى أهدافه

تصوير شخصيات استثنائية لتقديسها مقابل أخرى سيئة ننفر منها. فالأولى فيها تدنيس للحرمات والأخرى فيها تقديس. ونورد هنا مثالاً جرى على صعيد الدولة الفرنسية برمتها، فمن آثار إحياء ذكرى الماضي كان تنصيب "آندريه مالرو André Malraux" [١] في معبد العظماء. كرّس رجال السياسة والصحافة خلال أسابيع طويلة أنفسهم للثناء المفرط على الميت؛ فأسفر هذا التصرف عن تجاهل ملامح أساسية لفهم هذه الشخصية، كانحيازه الجارف لستالين قبل فترة الحرب، وتعاطيه للمخدرات بعدها. فجاء إحياء الذكرى محاولة لإدراك ماضيه الحقيقي. أما الاحتفال بالذكرى فكان تكييفاً للماضي في خدمة الحاضر. نفهم من هذا السياق كم هو مؤسف أن تعبير "طالب التعديل" بات يعني الرفض المبرَّر سياسياً لحقيقة غرف الغاز في المعتقلات الألمانية، أما التعبير الأفضل منه فهو "رافض التعديل". والحقيقة التاريخية، حقيقة الفضائح، تخضع باستمرار ولحسن الحظ، للمراجعة. أما عكس تعبير "تاريخ طالب التعديل" فهو التاريخ الورع، والذي يهتم بالاحتفال بالذكرى أكثر من تعلقه بالبحث.

إن إحياء الذكرى مع كونه مرحلة حتمية، ليس بالطريقة المثلى لاستعادة الماضي في الحاضر: فالإنسان في النظام الديمقراطي، يحتاج إلى أكثر من الصور الورعة، التي عندما توضع ضمن قوالب ثابتة، "رافضة" إجراء أي تعديل عليها، على اعتبار أنه تدنيسٌ لقدسيتها، عندئذٍ نخلص إلى اليقين بأن إحياء الذكرى لا يخدم إلاّ المصالح الخاصة للشخصيات الرئيسية على حساب رقيّهم الأخلاقيّ. وأورِد هنا مثالاً حياً، فقبيل وفاته، قام المؤّلف المسرحي الألماني "هينر مولر Heiner Müller" بزيارة إلى فيردان، ملبياً بذلك دعوة تلقاها من المسرح الوطني، للمشاركة في إعداد أحد المشاهد. ولدى سؤال الصحافيين له عن الانطباعات التي كونها بعد زيارته للآثار والنصب التذكارية، صرح قائلاً: "إن عملية الإخراج لهذه الأماكن ما هي إلاّ تدمير للمشاعر. فهذه النصب التذكارية ليست إلاّ تعبيراً فنياً مخصصاً للأموات، إنه فن عظيم، ولكنه لا يساوي شيئاً. أما الفن الحقيقي والسامي فهو الذي يُصنع خصيصاً

(١) الروائي الفرنسي (المترجم).

للأحياء [21]. لقد أثارت هذه التصريحات بلا شك، حفيظة الهيئات التي تهتم بالأماكن الأثرية المخصصة لتخليد الذكرى؛ أما فيما يتعلّق ببلدية فيردان فقد قامت بتبليغ إدارة المسرح بتعليق أي تعاون مشترك مع هذا المؤلّف، تحت طائلة قطع المؤونات عن هذا المسرح، ومن ثمّ إغلاقه. وبما أني لم أقم بزيارة هذه الأماكن الأثرية، فإني لا أملك أن أعبر عن رأيي الشخصي حول هذه النصب التذكارية في فيردان؛ ولكني أوافق "مولر" من حيث المبدأ: ففي عالمنا، ينبغي علينا تقديس القيم الإنسانية لا النصب التذكارية.

obeikandi.com

التقييم الأخلاقي

إن تسخير الماضي في خدمة الحاضر لهو عملٌ بنّاء. ومن أجل تقييمه، لا يكفي أن نطالب هذا العمل بأن يأتي ملائماً للحقيقة (كما لو كان الهدف منه سرداً للوقائع)، أو عملاً فاضحاً (مثل ذلك الذي يهدف لخدمة المعنى)؛ بل يجب تقييمه بعبارات الخير والشر، وهي معايير خاصة بالسياسة والأخلاق. فقد تبيّن أن عرض الماضي ليس كله مناسباً، وأن الحدث نفسه يمكن أن يولّد تفاسير وعِبَر متعددة. ففي الثلاثينات، كتب المؤلّف النمساوي "فرانز ويرفل **Franz Werfel**"في روايته (الأيام الأربعون لموسى داغ **les quarante jours de Musa Dagh**)، عن ملحمة الإبادة الجماعية للشعب الأرمني، والمقاومة التي أثيرت ضدها؛ كان من بين أهدافه دعم التصدّي في وجه المذهب النازي المعادي للسامية. وفي الفترة ذاتها، كان "هتلر" يثير في حديث علني، موضوع الإبادة العنصرية علّه يُفلت من العقاب في حال قيامه بتنفيذ جريمة مماثلة: "من منكم يذكر اليوم، المجزرة التي نُفذَّت بحق الشعب الأرمني؟" نفس الحدثُ الماضي، يقابله تطبيقان متناقضان في الحاضر.

السؤال الأول الذي يخطر على بالنا هو هل يحق لنا تقييم الماضي؟ في الحقيقة، تكفينا مراقبة كتابات المؤرخين لنلحظ أنهم لم يمتنعوا عن ذلك إلاّ في حالات استثنائية. ولكن هل فعلاً يملكون الحق في التصرف على هذا النحو؟

يمكننا إعادة النظر في شرعية الأحكام التي نطلقها من نواحٍ عدة. تتضمّن الناحية الأولى منها، إنكار وجود الحرية الإنسانية، على اعتبار أن جميع تصرفاتنا تخضع لضرورة متصلبة، سواء عرفنا ذلك أو لم نعرف، لذا فإن المديح أو الذم أمران لا دور لهما هنا. فأي عمل يفقد قيمته الخُلُقية إلاّ في حال عدم تنفيذه. وهذا بالتحديد ما يمنع اختصاصيي الفيزياء وعلماء الأحياء من تقييم الظواهر التي لم ينتهوا من دراستها بعد، حيث تلعب الأحكام دورها ضمن حدود الضرورة.

ونلاحظ أن نزعة محاكاة خبراء الطبيعة قد انتشرت لدى اختصاصيي البشرية والتاريخ وعلم الإنسان، وعلم النفس، وعلم الاجتماع. فقد حاول هؤلاء العلماء في مطلع القرن التاسع عشر، إثبات أن البشر يخضعون للأسباب التي تتخطّاهم، وهذه الأسباب ملموسة أكثر من الانتماء إلى الفضاء الخارجي المتجانس أو تدخل العناية الإلهية، وهذه كلها مبررات مذهب الحتمية لدى القدماء. يُفترض هنا ذكر التاريخ كما هو، أي وفق تسلسل الأحداث، أو بتعبير آخر، ضمن السياق الاجتماعي. لقد كتب "بنجامان كونستان " في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر:" إن القرن هو حصاد ضروري لكل ما سبقه. والقرن لا يمكن أن يكون أفضل مما هو عليه". إن في إطلاقنا الأحكام على الماضي شيء من السخافة. "إذ أن الأمر لا يحتاج إلى رقابة كما أنه لا يحتاج إلى إطراء [..]. فروح القرن هي أمر حتمي، وحدث فيزيائي. والمعروف أن الظاهرة الفيزيائية تُبرهَن ولا تُقَيّم [22]". ويمضي مائة عام ويأتي عالِم النظرية الشيوعية عام ١٩١٤ "نيكولاي بوكارين " ليؤكّد أنه "لا يوجد شيء أسخف من محاولة تحويل نظرية ماركس إلى نظرية أخلاقية. فنظرية ماركس تأخذ القانون الطبيعي للسبب والنتيجة، ولا يمكن أن تعترف بغيرها [23].

أما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد تمت إضافة العلاقة السببية الخاصة بعلم الأحياء إلى العلاقة السببية للحتمية الاجتماعية. فإذا كنا نتصرّف بدافع قوة انتمائنا للعنصر البشري، فهل يستدعي ذلك تحميلنا المسؤولية؟ ويناضل "موريس باريس **Maurice Barrès** "لإدانة "دريفوس **Dreyfus** الضابط الفرنسي، الذي اتُهم وأُدين ظلماً بالتجسس، ثم رد إليه اعتباره"، ولكنه في الوقت نفسه يحاول تنقيته من أية مذمّة أخلاقية. " إننا نطلب من ابن سام هذا الملامح الجميلة للعرق الهندي-الأوروبي [...] فلو كنّا نتمتّع بذكاء متجرّد من أية مصلحة، لكنّا رأينا فيه ممثّلاً لجنس مختلف، وذلك عوضاً عن محاكمته من خلال ميزان الأخلاق الفرنسية ومن خلال ميزان عدالتنا، وكإنسان مشابه لنا [24]". بدلاً من تعلقه بالعدالة، فإن "دريفوس" يتعلّق بعالم الحيوان من خلال تجسيده لتصرف جنس بشري آخر، وهم اليهود، ولا نملك الحق، نحن الآريون، بتقييمهم... وأخيراً، و مع بداية القرن العشرين تمّ إضافة

نوع ثالث للعلاقة السببية (أو الصراعات في سبيل تحقيق الهيمنة)، فإن الفرد يستنبط سلوكه من المعاملة التي تلقاها في طفولته الأولى (علاقته بأهله المباشرين)، والتي تحدد شكل الدوافع اللاواعية لديه. فهو لن يطلب من المحلل النفساني الذي يعالجه، تقييماً لأخلاقه، بل يطلب منه بعض الدعم لتطوير إدراكه.

إن هذه الأشكال الثلاثة للحتمية، المتضمّنة علم الاجتماع، وعلم الأحياء، وعلم النفس (والتي تسير وفق تدرّج منطقي) تشترك في أمر واحد وهو عدم إفساح المجال للتقييم الأخلاقي، بدافع الطمع الشامل: فإذا كان البشر يشبهون قبائل النمل في كل قضاياهم الحياتية، يُفترض إذاً الامتناع عن تقييمهم، يمكننا على الأكثر محاولة إيجاد تفسير لتصرفاتهم. ومع ذلك، فإن هذا العرض لم ينل إعجاب هؤلاء الذين اكتشفوا وجود أشكال متعددة للحتمية التي تمارَس في حياة البشر، بما أنه يترتب عليهم التسليم بالأمر، لأنه لا يوجد أي مبرر متجانس يسمح بتوقع تصرفات الأفراد (أي "يولدها") ؛ فكل شيء يمضي وكأن هناك جرعة من الحرية قد أفلتت من تأثير الأسباب. وقد أضاف "بنجامان كونستان" إلى جانب الآراء التي ذكرتُها: حتى عندما تحدّد الظروف التاريخية حركة الجماعة، فإنها تولي حرية الأفراد حيزاً هاماً. "كل تصرّف يصدر من الأفراد ينم عن الأخلاق، أما عند الجماعة فإنه يبدو مادياً [...] كل فرد يتمتع بحريته على الصعيد الفردي، فقط لكونه يتعامل مع نفسه، أو مع أفراد آخرين يضاهونه بالقوة. ولكنه ما أن ينتمي إلى الجماعة، حتى يفقد تلك الحرية". كل فرد يتصرّف بما يتناسب وإرادته، يمكن إذاً تقييم أفعاله على الصعيد الأخلاقي. مهما كان الشكل الفلسفي الذي نضفيه على المبرر، فإننا نجد أنفسنا مرغمين على القبول به، حيث أن الكل يتصرّف على افتراض وجود جرعة حرية في داخله، وكلنا لا نتوانى عن إطلاق الأحكام على تصرفات غيرنا.

هناك طريقة ثانية لدحض شرعية إطلاق الأحكام الأخلاقية على التاريخ؛ فهي لا تنكر وجود هذه الأحكام، ولكنها تبيّن الإفراط في استخدامها، وتصنفها على أنها استبدادية بحتة. ندخل هنا "ضمن نطاق نظرية "نيتشه **Nietzsche**"[١] التي تتعلّق

(١) الفيلسوف الألماني (المترجم).

بوجهات النظر. فإذا تساوت جميع الأحكام، فبمَ يفيد إطلاعنا عليها، خاصة وأن الأحداث تنتمي إلى الماضي؟ إذا لم يكن الخُلُق والحق سوى قناع تقتتيه كل من الرغبة وإرادة التسلّط لفرض وجودهما، يمكن حينئذٍ أن ندرك آثارهما في سرد المؤرّخ، لا فائدة إذاً من المناقشة العقلانية. إن نظرية النسبية لا تلغي وجود قيم أخرى غير الشخصية منها، ولكنها تحصرها في زمان ومكان معيّنين؛ فالقيم هي نتاج حصري للتاريخ والثقافة.

يمكن دعم هذا الشك اعتباراً من اللحظة التي نعتبر فيها أننا مهما فعلنا، سنجد أنفسنا في مواجهة مع خطابات، تماماً مثل تيار الأفكار الشائع في الجامعات الأميركية، والمعروف بالـ "المدمّر". ولكي نورد مثالاً بين آلاف الأمثلة، نذكر تساؤل أحد المعلّقين لدى قوله لماذا فُرض علي احترام أولئك الذين يتحمسون للشاعر الروسي "أوسيب ماندلستام **Ossip Mandelstam**"في صراعه ضد "جوزيف ستالين"، في الوقت الذي نَعتَ كلٌ منهما الآخر أثناء حديثهما، بالشيطان؟ والأكثر من ذلك، فإن "سولجينيتسين **Soljenitsyne**" يتفوّق على قائد المخابرات الروسية (**KGB**) بتشدده: فماذا يفيد التقييم الذي يفضّل أحدهما على الآخر؟ يتهم المنشقون السوفييت الذين تم احتجازهم في المصحة النفسية، العلماءَ النفسانيين بالمرائين؛ لم يأتِ حديثهم إذاً أقل تعصباً من حديث علماء النفس. كل فرد فينا يطلق أحكاماً من وجهة نظره الخاصة، فتأتي تعسفية. يفَضَّل إذاً التخلّص منها طالما أن موضوعها يتعلّق بالماضي.

حتى لو تردد إلى مسامعنا في هذه الأيام وجهة النظر النسبية، لا أعتقد أنه يترتب علينا الأخذ بها على محمل الجد؛ إننا لا نستطيع القيام بذلك فعلياً إلا إذا قطعنا مسبقاً أية صلة بين الخطابات والجو الذي ألقيت فيه. كان كل من "ستالين" و"ماندلستام" يكرهان أعداءهما، ولكن "جوزيف ستالين" العظيم هو وحده الذي تفرّد بإرسال خمسة عشر مليوناً من أعدائه إلى معسكرات الاعتقال، واكتفى الشاعر "أوسيب" بالانضمام إليهم، ليموت من الإرهاق حال وصوله إلى هناك! بينما لم يرسل "سولجينيتسين" و المنشقين أحداً إلى السجن أو إلى المصحة النفسية. لهذا السبب، تكنّ الغالبية العظمى من الشعب كرهها وذمها لهؤلاء وتعاطفها مع أولئك: إذ لا يُعدّ

تصرفاً لائقاً أن تشتم إنساناً ما، ولكن أن تفرض عليه آلاماً لا نهاية لها بإقصائه، وتجويعه، وذله، قبل قتله، فذاك تصرف شائن وأكثر سوءاً من الذي سبقه.

بالإضافة إلى كل ما تقدّم، تبدو النسبية من بين كل القيم الأخرى، الأقل وضوحا. ففي حين تظهر لنا قيم عديدة على أنها نسبية، نشعر ونتوقع أن البعض منها هو عكس ذلك، وليس بإمكان أي ظرف تاريخي أو أية خصوصية ثقافية أن تدحضها بالقانون. لذا لا نجد صعوبة في إدراكنا العفوي لمضمون العلم الأخلاقي لبوذا، أو لسقراط أو للسيد المسيح، في الوقت الذي تفصل بيننا آلاف السنين. ربما لا نجد من يؤيدنا في هذه الفرضية؛ ولكن من الناحية العملية فإننا نتصرّف وكأننا ننتمي إليها. إننا نرفض مبرراتِ التضحية بالإنسان، أو إبادة جنس بشري معيّن، أو استعباد الناس، أو تعذيبهم، تذرعاً بالحقبة التاريخية التي حدثت فيها هذه الممارسات. هذا لا يعفينا، بالتأكيد، من محاولة فهم السبب والطريقة التي بدت فيها هذه الممارسات مقبولة، أو حتى جديرة بالثناء من قبل شعوب العالم بأكمله.

إننا نلجأ سواء بوعي منا أو عن غير وعي، إلى معايير معيّنة تتيح لنا التمييز بين الخير والشر المطلقين، أو على الأقل بين ما هو أفضل وما هو أسوأ. فما هي هذه المعايير؟ يتحتّم علينا في هذه المرحلة الخوض في تحليل موجز عن التقييم الأخلاقي نفسه.

لن يأتينا الجواب بسهولة، حتى لو اعتمدنا على التقاليد الأوروبية، حيث تبيّن لنا أن مفهوم الخير لم يبقَ ثابتاً على مر القرون، بل إنه قد تبدّل. فالتناقض بين أفكارنا الخُلُقية الحديثة وتلك العائدة لأجدادنا، يمكّننا من تحديد هوية المعايير التي نستخدمها بشكلٍ واعٍ إلى حدٍ ما. فإذا استخدمنا لغة "كانت **Kant**" [1]، يظهر لنا التباين الأول من خلال الانتقال من الخضوع لإرادة الغير إلى الاستقلال الذاتي، أي من حالة الخضوع لقانون صادر من مكان ما في هذا الكون، إلى حالة سن القوانين بأنفسنا. إذا توقفنا للحظة عند هذا التعميم، نجد أن القدماء كانوا ينعتون وضعنا للقانون بأنه أمر مناف للعقل، فهو إما مسجل في النظام الكوني أو أنه صادر عن

(١) الفيلسوف والناقد الألماني (المترجم).

وحي إلهي. وفي كلا الحالتين، سواء في أثينا أو في القدس، يزداد مقدار التقوى لدينا إذا التزمنا بالقانون الذي يأتينا من مصدر ما. أما بالنسبة للعصر الحديث، فلا يوجد أي فضل خُلُقي للخضوع لهذا القانون وبهذه البساطة. إن الفضل يبدأ من الحرية ولا يعود إلينا شخصياً، إلاّ إذا كان تصرفنا هو ثمرة إرادتنا الحرة.

أما السمة الثانية التي تفصل بين مفهوميّ الخير، فهي متضمَّنة في الانتقال من الموضوعية إلى الذاتية المتبادلة بين شخصين. كان المثل الأعلى قديماً يتمثّل في الحياة الطيبة، تلك التي لا تستبعد العلاقة مع الآخرين ولكنها في الوقت نفسه لا تبترها. بل إن الإنسان الحكيم هو الذي يعيش بعيداً، في معزل عن الناس. يبدأ التغيير هنا من الديانة اليهودية - المسيحية. يقول السيد المسيح في هذا، إن القانون بمجمله يتلخّص في هذين الأمرين: حب الله، وحب الآخرين كما نحب أنفسنا. ويحدّد: أن الله (سبحانه، جلّ في علاه) موجود في أعماق كل فرد فينا، مهما كان هذا الفرد وضيعاً، ففي كل مرة نعتني فيها بهذا الفرد، يكون دافعنا هو حب الله [25]. ويستخلص القديس بولس قائلاً: إن حب الله لا يختلف عن حب الآخرين؛ ولا يكتمل الإيمان من دون حب الإحسان [26]. إن الله يتجسّد للإنسان من خلال الغيريّة البشرية. فلم يعد الامتياز أو الكمال هما المثل الأعلى، إنما هي أعمال الإحسان، التي تستوجب الصلة بين اثنين.

صحيح أنه من وجهة النظر الدينية، لا يتم تقدير حب الخلائق إلاّ عندما يقود إلى حب الخالق. ولكن من شروط تطور الفلسفة الإنسانية الغربية، والنهضة في "عصر الأنوار"، الحفاظ على المثل الأعلى لأعمال الرفق والإحسان، بتحرير الفرد من الكفالة الإلهية الأصلية. فبالنسبة لعلماء الفلسفة الإنسانية، لا يمكن للخير أن يستمر إلا من خلال الأسرة البشرية، وليس من خلال الإنسان كفرد منعزل عن الآخرين. كتب "روسو" في ملاحظاته "لا يكتسب المرء الخُلُقَ إلاّ من خلال ارتباطه بالمجتمع"، علماً أنه من أنصار الإنعزالية. ويضيف وجوب تفضيل الآخرين على الذات، ويتابع قائلاً "كلما زاد اهتمامه بإسعاد الآخرين، كلما قلّ وقوعه في الخطأ في التمييز بين الخير والشر[27]". لهذا السبب، شدد "كانت" بدوره، على استحالة استبدال العناصر التي تتعلّق بالأهداف النهائية للإنسان، والتي هي "الكمال الخاص

بنا، كأفراد" و"إسعاد الآخرين[28]"؛ فإذا انشغل الإنسان بسعادته الخاصة، فسيُتهم بالأنانية؛ أما إذا استهدفت جهوده تحقيق الكمال للآخرين، فلن يكون سوى واحدٍ من المصلحين الأخلاقيين السمجين الذين يلحظون وجود القشة في أعين غيرهم، بينما يعمون عن رؤية الجائز في أعينهم. يمكن لنا أن نضيف أن العدالة تتحقق عندما نتعامل مع الآخرين كما نتعامل مع أنفسنا (فكلنا نخضع لقوانين واحدة)؛ أما إذا تعاملنا معهم على أفضل وجه، سواء كان دافعنا الحب أو الشعور بالواجب، فإننا سننتمي حينئذٍ إلى مملكة الأخلاق. بهذه الطريقة فقط يمكن أن نفسّر عبارة "لوفيناس" الذي تحدث عن "الفلسفة الإنسانية للإنسان الآخر"، وهي طريقة أخرى لوصف التصرّف الخُلُقي على أنه منزّه، من خلال وجهة نظرنا كأفراد ننتمي إلى العصر الحديث. كما كتب "لوفيناس" "فالقيمة المطلقة الوحيدة هي القدرة البشرية على إيثار الآخرين على أنفسنا [29]".

هذا الوصف للتقييم الخلقي ليس كافياً. لنتصور الآن الموقف التالي: إنسان عادي يختار لنفسه دوراً مستمراً يتيح له تحمّل مسؤولية الدفاع المنظّم عن الآخرين، ضمن أسرته الخاصة، في حين يوجه الانتقاد لأهله بلا هوادة. بسبب ذلك، لا يشغل الفضل الخلقي لهذا الإنسان ذلك الحيز الهام. لماذا؟ لأننا نعرف جيداً، في الواقع، ماهية هذا الدور الجديد. إنه دور الرسول القديم الذي يلوم شعبه بقسوة لأنه ينغمس في الخطيئة؛ أو دور ذلك المسافر الذي يذكر أمجاد الشعوب الغابرة (أولئك "الوحوش الطيبين") بهدف إنهاك أقاربه. إنه دور ذلك الكاتب الذي يوهم نفسه بأنه ضمير الأمة الحيّ النادم على خطيئته إلى الأبد، بتمثيل مجموعته بدور المعتدي المقيت، أو الجلاّد. إنه ذلك الألماني الذي يعتبر أن الشعب الألماني هو الأسوأ على وجه الأرض، والأمريكي الذي يرى في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية سلسلة متصلة من الاعتداءات الإمبريالية والاضطهاد العرقي. لذا، فإن من نتائج هذا الوضع الجديد، أي المصلح الخُلُقي، حرمان من سلك هذا المسلك من المضي في طريق الأخلاق.

يمكن لنا أن نذكر على هذا الصعيد، موقف آخر تدعمه مشاعرُ طيبة، ولكنه يمنع أي تصرف خُلُقي حقيقي، والمقصود التصرّف الذي ينطوي على التعاطف

العفوي. تدفعنا إلى هذا الموقف طريقة تداول المعلومات في مجتمعاتنا المعاصرة. فما أن تندلع حرب، أو تقوم مجزرة، أو تنتشر مجاعة، أو تحدث كارثة طبيعية في مكان ما من العالم، حتى تملأ صور الجثث الملقاة هنا وهناك، والجرحى الذين لا يجدون من يسعفهم، والشباب الباكي، والأطفال الهزيلون، شاشات التلفاز بشكلٍ مكثّف، مما يجعلنا نصرخ بملء حناجرنا: "أوقفوا هذه المظالم!" ونشعر بأنفسنا أننا على أتم استعداد للتبرع بما ندخره من مؤونة في بيوتنا أو برصيد حسابنا في المصرف، مهما كان زهيداً، من أجل نصرة القضية العادلة. إن هذا الموقف الإيجابي هو أفضل بلا شك من موقف اللامبالاة، غير أنه لا يخلو مع ذلك من الآثار الجانبية السلبية البغيضة: منها، كما يقول "برومان **Brauman**" تَحَوُّل الألم إلى مأساة، واستبدال التحليل السياسي "البارد" بتفجّر للعواطف الجياشة، يرافقها راحة الضمير الحيّ للشعوب بانحيازها و"ببسالة" إلى صف الضحايا. إذاً فالعرض السريع الذي قدمتُه عن الأخلاق العصرية لم يُجْدِ نفعاً. حيث لا يكفي أن نصرّح بأننا نفضّل الآخرين على أنفسنا، أو حتى أن نستأثر بدور المُصلِح الأخلاقي. علينا بالعودة إلى التصرّف الخُلُقي.

لنراقب تطوّر الطفل عن كثب، إن المرحلة التأسيسية لشخصيته تكمن في حثه على التمييز بين الخير والشر، فيجد هذا الكائن الصغير نفسه منقاداً إلى هذا التمييز وهو يشعر بالمتعة من جراء الحب والدلال اللذيَن يلقاهما من الأشخاص المقرّبين إليه، تماماً كما يشعر بالكرب عندما يجد نفسه محروماً منهم. هذه التجارب الانفعالية تتضمّن بذرة لأنواع الخُلُق: فالخير والشر هما انعكاس لوجهة نظره. ولا يجدر بنا الاستهانة بهذه الخطوة الأولى، ففي غياب الحب الأولي، وانعدام اليقين بأن هناك أشخاص من حوله يولونه العناية اللازمة، ويحيطونه باللمسات الحانية في مرحلة الطفولة الأولى، ينشأ الطفل في حالة من الضمور الخلقي، والعدمية الجذرية. وعندما يصل إلى مرحلة البلوغ والرشد، يقوم بأعمالٍ شريرة دون أي رادع من ضميره.

إن هذه الخطوة الأولى في اكتساب معنى الأخلاق، إلى جانب التمييز بين الخير والشر المبني على الحب، ليست بالكافية. فعندما يكبر قليلاً، ويندمج مع أقرانه، يكتشف الطفل أمراً آخر يتعايش معه بشكل أليم: حيث ينبغي له أن يفرّق بين الخير

والشر من جهة، وبين الأنا والآخرين من جهة ثانية، أي عليه استبدال هوية الفرد بهوية الجماعة. إننا حتماً، لا نجسّد الخير، كما أن الآخرين ليسوا أسوأ منا بالضرورة؛ عندئذٍ نكون قد بدأنا بالتغلّب على مركزية الذات.

ويأتي هنا دور المرحلة الثالثة مع أن عدد الأفراد الذين يبلغونها قليل؛ فخلال هذه المرحلة، نجد أنفسنا قد صرفنا النظر عن أي توزيع حصري ونهائي للخير والشر، ولكننا لا نزال نميّز بينهما؛ حيث لم يعد غريمنا الذي نحاربه أو نقهره هو العدم أو الأنانية، بل المانوية. و يزداد الأمر سوءاً عندما نكتشف وجود الشر في أعماقنا وأعماق المجموعة التي ننتمي إليها، في حين أننا نجد الخير متأصّلاً عند الآخرين. فالتصرّف الذي يخدم مصلحتنا لا يساعدنا على تصنيفه ضمن لائحة "أعمال الخير أو أعمال الشر".

أصبحنا الآن ندرك سبب ترددنا في منح شرف الأخلاق للشخص الذي يذم ذويه ويمدح الآخرين؛ إننا نشعر أنه يستحق المكافأة على الدور الذي أولاه لأسرته الخاصة. فهو يمتلك القيم الأخلاقية ويقود الآخرين نحو طريق الرشاد، الذي يظنه يؤدي إلى الفضيلة. فعبارة "كلنا مذنبون"، تعني هنا: "أنني أقل منكم ذنباً بما أنني أبيّن لكم ذلك". فلا يمكن اتهام هذا الإنسان المعاصر الذي يتصرّف على هذا النحو بأنه يعاني من عرقية مركزية أو من كرهه للأجانب. فهو يمارس دوراً ذا فائدة بالنسبة للمجموعة التي ينتمي إليها، إنه دور المحافظ على القيم – فهو يضمن بذلك مكافأته الشخصية.

وفي الوقت نفسه، لا يقطع الصلة بالتوافق الأصلي بين "نحن والخير" وبين "الآخرين والشر"، يكتفي فقط بقلب المعنى، ويبقى بذلك مانوياً. وتبقى نقطة ضعفه في السمة المنظِّمة للتوزيع: فبدل أن يبحث عن الخير والشر، يقرر الرجوع إلى جذورهما. وللإفلات من هذا المأزق الجديد، عليه أن ينفصل عن مجموعته الأصلية، ولكن دون انتحال هوية المجموعة المقابلة، وموافقتها الرأي في كل شيء.

علينا إذاً فهم أنّ تخطّي هذه المرحلة الثالثة ضرورة لا بد منها. ونذكر هنا أن الحكم المطلق في بداياته، كان يفرّق بين الأفراد الجيدين والأفراد السيئين وفقاً

للقسمة المانوية، فكان يتعاطّف مع الفئة الأولى ويصفّي الفئة الثانية. إن معتَقَلَيَّ (أوشويتز وكوليما) ليسا سوى النهاية القصوى لهذه القسمة التدشينية؛ وكلنا مشتركون في هذه الجريمة عندما اعتبرنا القتائمين على تنفيذ أعمال الشر، هم الأعداء الحقيقيون، ووافقنا على التخلّص منهم. فإذا كان يتحتّم علينا أن نتبنّى مبادئ الشمولية لدحر نظامها، فإننا بهذه الطريقة نعترف بانتصار هذا النظام علينا.

إننا نتقبّل هذه الأمور بتجرّد، ولكن يصعب علينا الاكتفاء بهذه الاستنتاجات والوقوف عندها. وحيث أن النزعة المانوية وَوهم مركزية الذات ترتبطان بميولنا الحميمة، وأن غالبية ردود أفعالنا العفوية تنجم عنها عند الشدائد. فهل نردّ بالدهشة عندما نجدها في الحركات المذهبية التي عرفها تاريخنا؟

الروايات الشهيرة

تلك إذاً هي معاييرنا. ولكن أين سنطبقها؟ فالوقائع التي يتشكّل منها الماضي لا تأتينا بهيئتها الخام؛ إنما تُنقل إلينا عن طريق الروايات.

إن الرواية التاريخية لحدثٍ ما لا تتصّف بالحياد الأخلاقي، بل يمكن أن تتخذ طابع الخير أو طابع الشر. وهذه الرواية تخص على الأقل بطلين رئيسيين هما العميل والمريض. وهذا يسهّل عملية استنباط لأربعة أدوار رئيسية في كل رواية تاريخية تتعلّق بالقيم: يمكن أن أكون المحسِن أو المستفيد من فعله، كما يمكن أن أكون المجرم أو ضحيته. يبدو واضحا للوهلة الأولى، أنّ دورين فقط من هذه الأدوار ستنطبق عليهما القيم – المحسِن والمجرم – بينما يبقى الآخران المستفيد والضحية، حياديين إذ أنهما سلبيان. في الحقيقة، هذان الدوران الأخيران (المستفيد والضحية)، وبسبب علاقتهما المتينة بالدورين الأوليين، يبقيان متصلين ضمنياً معهما من الناحية الخُلُقية: أن نكون المستفيد من تصرّف ما، أمرٌ لا يدعو للفخر، كان الأفضل أن نلعب دور العميل، كون هذا الموقف قد جسّد لحظة عجزنا؛ أما أن نكون ضحية إساءة فهذا موقف نستحق عليه الاحترام ولا يستحقه المتسبب. وهنا نجد أنفسنا في مواجهة مع نوعين مختلفين للإنشاء التاريخي: الرواية البطولية التي تتغنّى بانتصار من ننتمي إليهم؛ والرواية التي تَصدر عن مقدِّم الضحية (إذا أمكننا استخدام هذا التعبير) الذي يصوّر آلامهم.

تنتابنا الدهشة لرؤية الضحايا هنا إلى جانب الأبطال – الذين فازوا بإعجاب الكل. فأين هي المتعة في كوننا الضحية؟ إنها معدومة، بالتأكيد. ولكن إذا رفض الناس أن يكونوا ضحايا، فكثيرون منهم تمنوا ارتداء هذا الثوب دون أن يتعرضوا للفعل، إنهم يتشوقون "لوضع" الضحية. وأكثر ما يتجلى هذا النص السينمائي في حياتنا الخاصة، حيث "يستولي" أحد أفراد العائلة على دور الضحية، ويسند دور المذنب الذي لا يرغب به أحد، إلى من هم حوله. أن تكون في موضع الضحية

يعطيكَ الحق في الشكوى، والاعتراض والاحتجاج؛ ويستجيب الكل لطلباتك، ولكن دون المساس بالروابط الأسرية التي تربطهم بك. إن الفائدة التي تجنيها بتمثيلك لدور الضحية، أكبر من النفع الذي يعود عليك من التعويض عن الإساءة التي ألّمت بك (فيما لو افترضنا أنها حقيقة)، فبدل حصولك على تعويض منتظم عن الإساءة، فزتَ بميزة دائمة، ألا وهي اهتمام الآخرين بك وعرفانهم بالجميل تجاهك. وعلى صعيد آخر مختلف تماماً، نجد أن قوة رواية السيد المسيح الذي قُدِّم كضحية، تم تجسيدها من خلال قصة آلام السيد المسيح، التي تشكّل حجر الزاوية في الدين المسيحي.

ما ينطبق على الأفراد، ينطبق على الجماعات. إذا تمكنّا من إثبات أن جماعة ما وقعت ضحية ظلم في الماضي بطريقة مقنعة، فهذا يفتح أمامها في الحاضر، رصيداً لا ينضب. إذا عرف المجتمع أن للجماعات حقوق لا يتمتّع بها الأفراد، فلماذا لا يغتنم الفرصة؛ كلما كانت الإساءة في الماضي كبيرة كلما ازدادت أهمية الحقوق في الحاضر. وبدل النضال لنيل الامتياز فإننا نحصل عليه حُكْماً، لمجرد انتمائنا إلى هذه الجماعة المضطهدة سابقاً. ومن هنا، ينشأ التنافس الضاري لنيل شرط الجماعة التي سبقت غيرها في تعرضها للاضطهاد، وليس بند الأمة المنعّمة أكثر من غيرها، كما هو سارٍ بين الدول.

يقدّم لنا الشعب الأميركي من أصل إفريقي مثالاً بليغاً عن هذا السلوك، هذا الشعب الذي وقع فريسة الاستعباد والتمييز العنصري بلا منازع، فبعد قضائه بجرأة وثبات على هذا الجور الذي وقع ضحيته، لا يرغب الآن بالتخلّي عن ممارسة دور الضحية القديمة التي تضمن له الحظوة الخُلُقية والسياسية المستمرة. وهذا ما أدركه "لويس فاراخان **Louis Farrakhan**" قائد "الأمة الإسلامية"، إذ قال بتعجّباً:" ماذا يمثّل موت ستة ملايين يهودي خارج حدود أميركا؟ إن المحارق التي راح ضحيتها شعب العرق الأسود كانت أسوأ بكثير، حيث فاق عدد ضحاياه، ضحايا الشعب اليهودي بمائة مرة". إن مقابل ضحية من اليهود هناك ضحية ونصف من الشعب الأفرو-أميركي؛ وقد أطلق "جان ميشيل شومون **Jean-Michel Chaumont**"على هذا الوضع تسمية "تزاحم الضحايا [30]". هل هذه هي السياسة التي نبتغيها؟ تتعالى

أصواتٌ مقنعة في أيامنا لتؤكّد أن معظم فشل الشعب الأميركي من أصل أفريقي، يعود مصدره ليس فقط للتمييز العنصري الذي يعاني منه في الوقت الحاضر، إنما نتيجة عجزه عن تجاوز محن الماضي، المترتبة عن الاستعباد والتجاوزات غير القانونية؛ كما يأتي فشله أيضاً من المحاولة التي تبعت هذه الحقبة والتي تتمثّل، كما كتب "شيلبي ستيل **Shelby Steel**"، "باستغلال ماضي الآلام كمصدر للحصول على النفوذ والامتيازات [31]".

لا بد من الإشارة هنا إلى أن المنح التي تم الحصول عليها من اتخاذهم وضع الضحايا لم تكن عن حاجة مادية. فالدَيْن رمزي، وإلى جانبه جاءت المزايا المادية زهيدة. أما الفوائد التي حصل عليها عضو المجموعة التي حازت على تسمية الضحايا، فكانت من طبيعة أخرى مختلفة تماماً، كما شهد على ذلك "آلان فينكيلكروت **Alain Finkielkraut**" إذ كتب يقول: "هناك آخرون وقعوا ضحايا الظلم والمعاناة، وأنا اليوم أحصد الفوائد الخُلُقية، فقط لأنني من فروع هذه العائلة. [...] لقد منحني نسبي إلى عائلتي صاحب الامتياز في هذه الإبادة، كما جعل مني شاهد العيان والضحية بآن واحد. [...] فبالمقارنة مع هذا التنصيب، كان سيبدو لي أي لقب آخر حقيراً وسخيفاً [32]".

من بين هذه الأدوار، هناك دوران فقط يلائمان الموضوع، هما أدوار البطل المحسنِ والضحية البريئة؛ ودوران لا يناسبان الموضوع وهما أدوار المجرم والمستفيد السلبي. وإذا توصلنا إلى مطابقتهم بالوجوه الإيجابية، لمجرد ذكر ماضي مجموعتنا، كنا حصلنا مباشرة على المكافأة بإسناد دور البطولة لأنفسنا؛ ويأتي الأمر مشابهاً إذا وضعنا الآخرين في دور المستفيد العاجز عن إنجاز عمل بطولي، أو في دور المجرم الشرير. إن هذا الوصف الشعائري والممتع بآن واحد، لا يعود بأية فائدة خلقية على من يسرده.

إننا نعرف حق المعرفة بأن التاريخ لم يُدوَّنه إلاّ المنتصرون. فحق كتابة التاريخ هو أحد الامتيازات التي يمنحنا إياها النصر الذي نحرزه. وقد طالبنا مراراً خلال هذا القرن، أن يُدوَّن التاريخ على لسان الضحايا والخانعين والمهزومين تماماً كما

يدونه المنتصرون، أو على الأقل أن يُذكر إلى جانبه. يتخذ هذا المطلب شرعيته على الصعيد التاريخي البحت، حيث أنه يدعونا للتعرف على الأوجه الكاملة للماضي المجهول. ولكن على الصعيد الخلقي، كوننا ننتمي إلى قافلة الضحايا فإنه لا يمنحنا أي فضل إضافي. فسواء كنا بين صفوف الأبطال، أو الضحايا، بين الطيارين الذين وضعوا حداً للحرب العالمية الثانية، أو بين الشعوب مسلوبة الإرادة التي رزحت تحت نير الإفناء الذري، فإننا لا ننفك نناصر "الأبرياء" و"الأخيار".

إن الفرصة الوحيدة التي نمتلكها لتطوير أنفسنا خلقياً تكمن في التعرّف إلى الشر المتغلغل في أعماقنا ومحاربته. وعندما نذكر أن "بلدنا" هو من تسبب بإلحاق الأذى بالآخرين، أو أنه وقف موقفاً سلبياً من مآثرهم البطولية، عندما يكون "الآخرون" هم الضحايا أو المحسِنون، فإن ذلك لن يعود على الفرد بالنفع المباشر؛ غير أنه لا يملك سوى هذه الطريقة ليباشر في إجراء فحص حرج لهويته ضمن الجماعة ولوضع سعادة الآخرين وكماله فوق كل مصالحه، عندئذٍ فقط، يصبح تصرفه خُلُقياً. عندما نقلّب صفحات الماضي التي لم يكن فيها بلدنا بطلاً صرفاً أو ضحية بشكلٍ كامل، يكوّن بالنسبة لمؤلّفي الروايات التاريخية عملاً ذا قيمة خُلُقية سامية. لن يجني الفرد أية فائدة خلقية إذا كان هدفه من استحضاره للماضي اتخاذ دورٍ هامٍ، ولكنه قد يحقق هذه الفائدة إذا تنبّه من خلال تذكره للماضي، لنقاط الضعف أو لهفوات بلده. فالأخلاق إما أن تكون منزّهة أو لا تكون.

يوشك تصنيفي للأدوار ولآثارها الخلقية أن يتخذ طابعاً مجرداً؛ لنأخذ بعض الأمثلة للتأكّد من صحة شعورنا فيما لو تقمصنا دور البطل أو دور الضحية. يمثّل يوم التاسع من شهر أيار من عام ١٩٤٥ بالنسبة للروس الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن، يوم النصر النهائي والكبير على الفاشية النازية، كانت نهاية الحرب قد كلفت البلد أكثر من خمسة وعشرين مليون قتيل؛ فالروس إذاً لا يتناهون عن إحياء ذكرى هذا الدور البطولي. أما بالنسبة لشعوب أوروبا الشرقية، فيمثّل هذا التاريخ دخولهم تحت سيطرة السوفييت، معلناً بذلك عن نوع جديد من أنواع الاستعباد لا التحرر.

فالماضي عبارة عن سلسلة أحداث ذات معاني مبهمة؛ ويقوم المهيمنون في العصر الحاضر بإضفاء قيمة لهذه الأحداث بشكلٍ لا يدعو للشك. ويشكّل يوم الثامن من شهر أيار من العام نفسه، يوم فخر وطني للفرنسيين؛ حيث شارك القادة الفرنسيون إلى جانب زملائهم الأمريكيين والانكليز والروس بالتوقيع على وثيقة استسلام ألمانيا. ولكننا لا نحب بالمقابل، إحياء ذكرى مجزرة بلدة (سيتيف **Sétif**) الجزائرية في ذلك اليوم المشؤوم. لقد اعتقد الشعب الجزائري بسذاجة أن الفرنسيين ما إن يتحرروا من هيمنة الألمان، حتى يمنحوهم استقلالهم. إلاّ أن موقف الفرنسيين جاء مغايراً بعد الحرب العالمية الثانية؛ وتحسباً لزعزعة نفوذهم العالمي، وحرصاً منهم على الاحتفاظ بإمبراطوريتهم الممتدة على عدة قارات من العالم، وبشكلٍ خاص بعد هزيمتهم الأولى أمام الألمان، اتخذ الفرنسيون موقفاً أكثر صلابةً تجاه الشعب الجزائري. فتراءت النتيجة في بلدة "سيتيف" التي لم يُعرف العدد الحقيقي لضحاياها الذين قضوا إثر أعمال القمع التي شنّها الفرنسيون على تلك البلدة، فجاءت التقديرات بين ألف وخمسمائة إلى خمسة وأربعين ألف ضحية.

يمكن لنا تجسيد الهيئة نفسها بتذكّر واقعة أخرى من التاريخ القريب (سأثيرها لاحقاً): إنها حادثة القنابل الذرية التي أُلقيت على كلٍ من هيروشيما وناغازاكي، والجدل الذي أثير حول مشروع عرض قاذفة القنابل (إينولا غاي **Enola Gay**)، في معهد (سميتزونيان **Smithsonian**). فقد كرّس المؤرخ الأميركي (جون داور **John Dower**) المختص بشؤون اليابان الحديث، عدة دراسات حول هذا الموضوع؛ وضّح من خلالها التاريخ كما ورد من وجهتي النظر الأمريكية واليابانية، فجاء عرض الوقائع وتقييمها مختلفاً تماماً بينهما، وحيث إنه لا مجال لوجود وقائع وهمية، ولم يقم أحد بتزوير المصادر، فإن عملية الاختيار والتأليف بين المعطيات الأولية كانت كافية.

فمن وجهة النظر الأميركية، جاء الحديث "عن رواية بطولية أو انتصارية، تمّ إلقاء القنابل الذرية فيها كضربة قاضية ضد خصم عدواني، متعصّب ومتوحش". أما الرواية اليابانية فقد سيطر فيها على العكس، "طابع الرواية الضحية" حيث "كانت فيها القنابل الذرية رمزاً لنوع خاص من الآلام - والتي جاءت مشابهة لمحرقة اليهود[33]". ففي متحف

هيروشيما، وجد اليابانيون لذّة في لعب دور الضحية حصراً، حيث لم يتم إثارة أي موضوع حول مسؤولية الحكومة اليابانية في إشعال فتيل الحرب واستمرارها، كما لم تُذكر المعاملات اللاإنسانية التي لاقاها سجناء الحرب أو الشعوب المدنية التي كانت تحت سيطرة اليابانيين، وعلى أيدي اليابانيين أنفسهم. فالحديقة العامة التي شُيد فيها المتحف إلى جانب الصرح الجنائزي الذي يحوي اسم مائة وستة وسبعون ألفاً وتسعمائة وأربعة وستون قتيلاً (١٧٦ ٩٦٤) راحوا ضحية القنبلة، تستقطب سنوياً، (١ ٥٠٠ ٠٠٠) مليوناً وخمسمائة ألف زائر ساخطين يأتون لإحياء ذكرى هذا الحدث بتأثر؛ أما الصرح الذي يحيي ذكرى (٢٠ ٠٠٠) عشرين ألف كوري صدر بحقهم حكماً بالأشغال الشاقة المؤبدة، و تمّ إعدامهم في نفس الوقت، فقد شُيِّد خارج هذه الأراضي المقدسة. و لا يوجد أي شيء في مدينة هيروشيما التي كانت منطقة عسكرية في الفترة التي سبقت الحرب، يذّكر بمجازر (نانكان **Nankin**) التي اقترفت في الصين عام ١٩٣٨ على يد الجيش الياباني، وخاصة من قبل الحامية الموجودة في هيروشيما نفسها، يُقدّر عدد ضحايا هذه المجزرة بثلاثمائة ألف (٣٠٠ ٠٠٠) قتيل. وقد تبيّن أن كلاً من المحامين الأمريكيين المدافعين عن الرواية البطولية من جهة، والمدافعين عن الرواية اليابانية التي تحكي قصة المدينتين الضحايا من جهة أخرى، كل قد اكتفى بإثارة وترويج روايته.

وقد تفاقم هذا الاختلاف أثناء حفل التأبين الذي أقيم إحياءً للذكرى الخمسين للانفجار الذري عام ١٩٩٥. فقد كان من المفترض أن تظهر قاذفة القنابل (إينولا غاي **Enola Gay**) وسط العرض الذي اقترَح تصوير الحدث بمجمله. ولكن وتحت ضغوطٍ من المحاربين القدماء ومن مجموعات وطنية أخرى تم استبدالها بسرعة بممثلين عن الأمة، فقد ألغي مشروع العرض هذا، بعد اعتباره مسيئاً للذكرى: فهو لن يُظهِر الأمريكيين بدور البطل المحسِن، الذي انتصر على الروح الحربية اليابانية، بل اقترح تحميلهم المسؤولية كاملة عن المجزرة التي لم تكن مبررة بشكلٍ كافٍ.

ماذا تشبه الرواية التي يتجنب الكاتب فيها أن يبيّن موقفه بوضوح: أهو مع البطل أو مع الضحية؟ إن أكبر مثال على ذلك المؤلّف (جون داور) الذي يعطينا هذا

النموذج من خلال دراسته لردود الأفعال الأمريكية واليابانية خلال حفل التأبين الخمسين في هيروشيما. كنّا نراه في كلا الفريقين، فهو ينتمي لأحدهما، واضطره عمله لأن يتعرّف على الفريق الثاني. والنتيجة، أنه كتب الرواية الثالثة للأحداث تحت عنوان: "هيروشيما الضحية" (وفقاً لوجهة النظر اليابانية)، و"هيروشيما كمنتصر" (حسب وجهة النظر الأميركية) هي "هيروشيما المأساة".

لماذا ندعوها بالفاجعة؟ حتماً لأن هيروشيما تُؤثِر الأحداث الجسيمة، فالسعادة لن يكون لها وقع الحدث، والرواية الرعوية موضوع نادر في المؤلّفات التاريخية. ثم إن التاريخ لا يورد أحداث الخير والشر على حقيقتها. ومع ذلك، فالحرب العالمية الثانية (التي تختلف في كثير من الأمور عن الأولى) هي خير برهان على التوزيع الخالي من الالتباس، فكلنا متفقون على أن هتلر هو بلا منازع خير من يجسّد الجرائم، وبالتالي ألا ينبغي تصنيف كل كفاح ضده في قائمة أعمال الخير؟ بيد أننا عندما نفكّر بهذه الطريقة فإننا نؤكّد تأييدنا للذين يدّعون "أن الغاية تبرر الوسيلة"، وأنه من أجل التغلّب على العدو، فإن تقليد أعماله أمر مباح. فحتى عام ١٩٤٢، كانت الحكومات البريطانية والأمريكية تصف إبادة الشعوب المدنية على أنها أعمال همجية؛ لكنها وانطلاقاً من هذا التاريخ اتخذت من هذا الأسلوب منهجاً لسياستها. ففي شباط من عام ١٩٤٥، تم القضاء على أربعين ألف مواطن مدني بالقنابل التي ألقيت على (دريسد). وفي آذار من العام نفسه، قضى مائة ألف مواطن في طوكيو بالطريقة نفسها؛ بينما كانت كل من هيروشيما وناغازاكي ضمن اللائحة التالية. ويُنهي "داور" كلامه قائلاً: "لقد دخل مرتكبو هذه الجرائم التاريخ من بوابة الأبطال، ولكن أيديهم كانت ملطخة بدم النساء والأطفال، ومن هذا المنطلق أصبحوا أبطالاً لرواية مأساوية بدل رواية النصر". وبالتالي، أصبحت ضحية الأمس "تحاكي" مجرم الأمس.

إن كلمة "مأساة" لا تحمل في طياتها معاني الألم واليأس ولا تعني غياب أعمال الخير؛ فهذه قد تنجم عن رواية "الضحية". لا، فالمأساة تكمن عندما يعجز الإنسان عن تقديم أعمال الخير لأخيه الإنسان: مهما كان هدفه، فهذا العجز لا يولّد سوى الدموع والموت. إن قضية الحلفاء هي بلا شك أسمى من قضية النازيين الألمان أو

أنصار التسلّط العسكري الياباني، لذا فالحرب التي شُنت ضدهم كانت عادلة وضرورية؛ ولكنها تسببت بمصيبة لا يمكن الإطاحة بها بظاهر اليد مع ادعائنا أنها "تخص غيرنا". لقد سُحقت هذه الطفلة الصغيرة ذات الاثني عشر ربيعاً في هيروشيما، بينما بقيت قصعتها بمحض الصدفة، ولكن محتوياتها من الأرز وحبات البازلاء تفحمت من جراء الانفجار الذري؛ إن وزن هذه القصعة يفوق وزن القلعة الطائرة التي تُدعى (إينولا غاي) بكثير. بالفعل كان وجودها بين الأشياء التي أقرضها متحف هيروشيما للمؤسسة الأميركية، سبباً لإلغاء العرض من قبل الأبطال القدماء. فإذا تملكتنا الشجاعة الكافية للتفكير بقاذفة القنابل من جهة وتلك القصعة من جهة أخرى، فإننا لن نتمكّن من الهروب من تلك النظرة المأساوية للتاريخ.

obeikandl.com

obeikandl.com

يظهر هنا "دافيد روسيه"

و هو يرافع في إحدى جلسات القضية التي أقامها ضد صحيفة

(رسائل فرنسية) عام ١٩٥٠ .

obeikandl.com

القرن من منظار
دافيد روسيه
David Rousset

عاش "دافيد روسيه" بين عامي ١٩١٢ و١٩٩٧. خدم قبل الحرب في الحزب الاشتراكي، ثم انتمى إلى صفوف اليساريين (التروتسكيست). أُلقي القبض عليه بتهمة أعمال مقاومة في نيسان ١٩٤٣ وأُرسل إلى (بوشنوالد **Buchenwald**) ليُفَرج عنه في نفس الشهر من عام ١٩٤٥. ولدى عودته إلى فرنسا باشر بنشر كتابين لقيا صدى كبيراً على مستوى العالم: أما الكتاب الأول فحمل عنوان "العالم الاعتقالي"، في عام ١٩٤٦، حاز على جائزة (رونودوت **Renaudot**) [1] لفوزه بالرواية وبتحليله لنظام القمع النازي؛ وأطلق على الكتاب الثاني عنوان (الأيام التي واجهنا فيها الموت) نُشر عام ١٩٤٧؛ جاء هذا الكتاب على شكل قصة خيالية متعددة النغمات، فقد جمعت روايات عديدة صدرت عن سجناء مبعدين. وبسبب هذين المؤلفَين، باتت عبارة "الاعتقال" تتردد كثيراً لسنوات طويلة إلى جانب الصورة التي تنطوي على الحياة داخل المعسكرات بالنسبة لمعتقل سياسي. وفي السنوات التالية، تابع "روسيه" نضاله السياسي (من خلال المنصب الذي شغله كنائب في الجمعية الوطنية لفترة قصيرة)، إلى جانب نشره مؤلفات أخرى حول التاريخ والتأمل.

فما الذي جعل من "دافيد روسيه" شخصية استثنائية؟ بالطبع ليس ماضيه الذي نقله من مناضل إلى مبعد، إلى ناجٍ من الموت إلى شاهد عيان، بل لأنه أول من قاد عام ١٩٤٩، دوناً عن كل الضحايا الذين سبقوه، النضال السياسي ضد المعسكرات التي كانت قائمة في ذلك التاريخ. فقد أصدر في اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الثاني من العام نفسه، نداءً إلى كل الذين تمّ إبعادهم إلى معسكرات الاعتقال النازية

(١) نسبة إلى الطبيب الفرنسي، والكاتب للسيرة الذاتية للملك، والمؤسّس لإحدى المجلات الفرنسية (المترجم).

لكي يقودوا حملة تفتيشية داخل المعسكرات السوفييتية، التي كان نشاطها في أوجه آنذاك. كان لهذا النداء وقع القنبلة، فالشيوعيون لهم من يمثلهم ضمن المبعدين القدماء، والاختيار بين الولائين قد يُحدث شرخاً؛ على أثر ندائه، انقسمت عدة اتحادات مؤلّفة من المبعَدين إلى قسمين. ساند عدد من المنفيين "روسيه" في نضاله، ولكن كان عليه أن يأخذ المبادرة وأن ينكر ذاته. تصرفٌ ينم عن شجاعة فريدة، لقي بسببه هجوماً عنيفاً ومباشراً، وهجره أصدقاء الأمس، حتى صديقه في المعتقل "إيميل"، ذلك الشيوعي الألماني الذي أهدى إليه كتابه (الأيام التي واجهنا فيها الموت)، وكان آخرون يعبرون إلى الرصيف الثاني عندما يصادفونه في الشارع. أما الصحيفة الشيوعية (رسائل فرنسية)، فقد غطته مقالاتها بالشتائم، مما دعاه إلى إقامة دعوى تشهير ضدها، وكسبَ القضية بمساعدة "مارغريت بوبر- نيومان" التي شهدت لصالحه. وتخلّى عنه أصدقاؤه اليساريون القدماء. ووقّع كلٌ من "سارتر **Sartre**" [١] و"ميرلو بونتي **Ponty-Merleau** " [٢] في العشرين من كانون الأول من عام ١٩٥٠، على مقال في صحيفة (الأزمنة الحديثة) بعنوان (أيام حياتنا)، يقطعون فيه أواصر الصداقة مع الرفيق القديم. "في الحقيقة، إن الخوض في تجربة المطلق مثل الأهوال في المعسكرات لا يمكنه أن يحدد سياسة بلدٍ ما"، ذلك ما كتبوه تبريراً لرفضهم المشاركة في إدانة الاتحاد السوفييتي، مجسّدين بهذه الطريقة الشعور باللامسؤولية السياسية لدى المفكرين الفرنسيين الذين كانوا الأكثر شهرة في تلك الحقبة.

ولم ييأس "روسيه" ولم يتراجع بل عاود الكرّة. فأسس في ذلك الشهر من عام ١٩٥٠ بالتعاون مع مجموعة من المهجّرين القدماء، لجنة دولية ضد نظام معسكرات الاعتقال (**CICRC**)، من مهماتها التحقيق في أمور هذه المعسكرات التي لم تتوقف عن مزاولة نشاطها حتى ذلك التاريخ، حيثما وجدت. وكانت المعتقدات السياسية والدينية والفلسفية لمؤسسي هذه اللجنة على درجة من التباين؛ إلاّ أن القاسم المشترك بينهم كانت تلك التجربة التي خاضوها سوياً داخل المعتقلات النازية، إلى

(١) الكاتب والفيلسوف الفرنسي وصاحب نظرية الوجودية الملحدة (المترجم).
(٢) الفيلسوف فرنسي وأحد ممثلي نظرية الوجودية الملحدة (المترجم).

جانب ذلك، اليقين بضرورة إزالة أي أثر لباقي المعتقلات في هذا العالم الذي ينتمون إليه. وأمام رفض السلطات السوفييتية الانصياع إلى طلبه في مباشرة التحقيق في بلدهم، لجأت اللجنة عام ١٩٥١، إلى الدعوة لعقد جلسة علنية مقرها في بروكسل- بلجيكا، قامت خلالها هيئة محكمة الشرف، المكوّنة من شخصيات مختلفة من دول عدة (كانت من بينهم جيرمين تيون التي مثلت فرنسا)، إذاً قامت هذه الهيئة بإعداد المعلومات التي كوّنتها عن النظام السائد داخل المعتقلات السوفييتية؛ أما النائب العام في هذه الهيئة فكان "روسيه" نفسه.

وتابعت اللجنة نشاطها حتى عام ١٩٦١ . وعن غير عمد، أوجد "روسيه" مبدأ المنظّمات غير الحكومية (ONG)، التي امتد نشاطها خارج مِلاك الدول، فكانت تزاول ضغطاً على هذه الدول مستنجدة بالرأي العام. صحيح أن انقسام العالم إلى معسكرين خصمين، وجو الحرب الباردة الذي كان سائداً، أمور لم تكن في صالح هذه المنظّمات (الإنسانية) -التسمية التي نطلقها عليها في أيامنا هذه- ولكن هذا لم يثنِ "روسيه" عن عزمه وتابعت اللجنة عملها. كان يجب أولاً تهيئة الوثائق الصحيحة، حيث تم لهذا الهدف سؤال الآلاف من الشهود، وتحليل شهاداتهم، ومطابقتها فيما بينها؛ ثم جُمعت هذه الوثائق وتُرجمت، وأخيراً نُشرت. وانطلاقاً من هنا، أصبح بالإمكان إشهار عمل هذه اللجنة، فقد تمّ استجواب الحكومات، وقُدمت الشكاوى لدى المحاكم، ومن ثمّ تمّ إعلام الصحافة. فما شكّله "روسيه" يشبه إلى حدٍ ما العفو العام(Amnesty International) ؛ فقد أثمرت مداخلاته العديدة عن نتائج إيجابية، خاصة في الدول "الرأسمالية".

وكرّس "روسيه" اثنى عشر عاماً من حياته للعمل في متابعة هذه المهمة بتفانٍ، مع أن العمل ضمن هذه اللجنة لهو بالأمر الجاحد لسببين. حيث يعتمد أعضاء هذه اللجنة على التبرعات، كونهم لا يمتلكون الدعم المالي اللازم، كما ترتب على كل فرد فيهم البحث عن مصدر آخر لكسب لقمة العيش؛ وكانت اجتماعاتهم تُعقد في مطبخ شقة أحدهم. في الوقت نفسه كانت الصحافة "التقدمية"، الصوت الأكثر انتشاراً على صعيد الرأي العام العالمي في ذلك الوقت، قد أشبعتهم ذلاً وعاراً، فكانت تنعتهم

بأنهم عملاء الأميركيين! أعداء السلام! إقطاعيون كاذبون! ومن أجل الاستمرار، كان على "روسيه" الصمود أمام هذا الوابل من التهم والشتائم الذي كان ينهال عليهم من كل حدبٍ وصوب. كان عليهم تحمّل رؤية الأصدقاء القدماء يشيحون بوجوههم عنهم، وقبول دعم أولئك الذين لا يقدّرونهم. لقد ذكرت "جيرمين تييون" كل ذلك بعد مضي خمسين عاماً، إذ قالت: "من أجل الدفاع عن العدالة والحقيقة، كان لا بد لنا من تحمّل آلامٍ عظيمة كادت تودي بحياتنا أحياناً (ولكن مع دعم أقربائنا المستمر والعميق كي نبقى قريبين منهم). وهناك لون آخر من الشجاعة كان مطلوباً إثباته فيما يتعلّق بإظهار الحقيقة وإقامة العدالة، كان يجب التصدّي أيضاً للأقرباء والرفقاء، والأصدقاء...، لقد برهن "دافيد روسيه" عن هذين النوعين من الإقدام [1]".

يتسلل الشك في بعض الأحيان إلى أعماق بعض الناس حتى الأكثر ثباتاً منهم، يرافق ذلك الرغبة بالرجوع عن النضال اليائس في ظاهره. وحيث أن "روسيه" وأصدقاءه بشر كباقي البشر، فإن حركتهم تبقى مقيّدة بانفعالات العالم وحقده، التي تختبئ وراء أسباب خفية لتخضّب جُبنه، في لبس من الأمور". وإذا تمكنوا من المضي في هذا الطريق الذي اختاروه لأنفسهم، فذلك يعود إلى تأثرهم العميق بتجربتهم الأليمة التي خاضوها في أثناء عملية تهجيرهم إلى المعتقلات، فكانوا يدركون أنه "عندما يدق ناقوس الموت في المعتقل، فإنه يدق لأجلهم". وبالرغم من كل تلك العقبات والمساوئ، فقد كان يراودهم الشعور بضرورة إنجاز العمل "المحتّم والمفيد منذ الحرب الأخيرة [2]". ويجب أن نعترف بصراحة، أن أفضل وسيلة لمحاربة معسكرات الاعتقال في تلك الحقبة من الزمن تكمن في ممارسة ضغوط خارجية على الحكومات الشمولية.

فلو كان اهتمام "روسيه" مُنصبّاً على شخصه، لكان أمضى البقية الباقية من حياته في استعادة ذكريات ماضيه، وتضميد جراحه، وتغذية نقمته ضد من ألحقوا به الإهانة التي لا تنسى. لكنه اختار الاهتمام بالآخرين، فقرر استخدام تجربته الماضية لكي يندفع من خلالها، نحو موقف جديد لا يلعب فيه دور البطولة، ولم يستطع التعرّف على تلك الشخصية إلاّ من خلال المواقف المشابهة لمواقفه، أو مواقف تأتيه من الخارج. إنه بهذه الطريقة، يفهم دوره كمهجّر سابق، ولهذا السبب فهو

يتوجّه بالدرجة الأولى - وهذا هام أيضاً- إلى مهجّرين سابقين عاشوا نفس الظروف. كان يقول لهم:

"إنكم لا تملكون أن ترفضوا لعب دور القاضي. إنها المهمة الأهم في حياتكم، أنتم أيها المهجّرون السياسيون القدماء [...]، أما الآخرون الذين لم يدخلوا إلى هذه المعتقلات في حياتهم، فإن جدبَ خيالهم، وعجزهم يشفعان لهم. أما نحن، فإننا أناس حرفيون ولنا باع في هذا المضمار! إنه الثمن الذي علينا تسديده فيما تبقى لنا من عمرنا[3]". إن التحقيق الذي يتناول واقع معسكرات اليوم هو واجب المهجّرين القدماء. على عكس ما أشاد به كل من "سارتر وميرلو -بونتي"، ففي تلك التجربة الجوهرية تأسست الخيارات السياسية الصالحة - هذه التجربة قد أدخلت في أذهانهم ما يسميه "روسيه" "جنون الحقيقة والعدالة".

إن مثل هذا الخيار يفرض علينا بالتأكيد المقارنة بين المعسكر النازي والمعسكر السوفييتي. "روسيه"من ناحيته، كان على دراية بخطورة العملية. فهناك بعض التباين الذي لا يمكن تخطيه: إذ لا توجد معسكرات إبادة في جمهوريات الاتحاد السوفييتي؛ و ليس من المناسب تعميمها حالياً. ولكن في الوقت نفسه، لا تقود هذه المقارنة إلى فعل في الوقت الحاضر، فلا يسعنا إلاّ الوقوف صامتين بذهول مع تعاطفنا غير المحدود لضحاياهم. بيد أن الاعتقال هو ظاهرة مشتركة للنظامين، والخلافات الأخرى الحقيقية لا تبرر التخلّي عن المقارنة. ويعتبر"روسيه" أن المقارنة هي وسيلة العمل الأكثر فعالية، لأننا بواسطتها ننتقل مما هو معروف إلى ما هو مجهول، وهي وسيلة للإدراك.

ويتبادر سؤال ثانٍ إلى الأذهان: ألا يفترض بنا تعميم الأمر وتشبيه الألم الذي يعاني منه سجناء المعتقلات بتلك "الصرخة العالمية الأزلية الصادرة عن حناجر كل الشعوب"، وبذلك الشقاء وذلك الظلم؟ ولكننا نخشى بالفعل أن تتلاشى هذه المقارنة وتذوب في بوتقة الظلم الذي يُطبّق على الصعيد العالمي، حيث أن قطط البؤس كلها رمادية اللون. عندئذٍ نكون قد حكمنا على أنفسنا ليس فقط بالعجز أمام عظم المهمة، ولكن ربما أغفلنا أيضاً حقيقة كون المعتقلات لا تمثّل شكلاً من أشكال الظلم

الذي يمارس على الصعيد العام فحسب، بل إنها أكبر أشكال الانحطاط الذي انقاد إليه البشر في القرن العشرين. وكما صرّح عن ذلك "روسيه" في مرافعته: "لا يمكن قياس الشقاء الذي يلقاه السجناء داخل المعتقلات بباقي أنواع الشقاء خارجها[4]". فهو يعمم ولكن ضمن حدود؛ إنه لا يلغي هوية الوقائع بل يربطها بعضاً ببعض. أما كلمة "لا يمكن قياس" فهي لا تعني "بدون روابط"، فالتطرف هو البذرة اليومية. ويجدر بنا أن نكون دقيقين في تمييزنا بين البذرة والثمرة.

أما الحفاظ على هذا التوازن فهو شغل "روسيه" الشاغل. فمن جهة، يريد الإبقاء على معنى سلّم القيم والجرائم، وشجب "التكافؤ المنطوي على الرياء؛ أولئك الزنوج في دول الجنوب الذين تبلغ درجة شقائهم درجة شقاء سجناء كوليما". ومن جهة أخرى، يرغب بمناهضة الظلم المنتشر، الذي يُفترض به أن يصبح باهتاً بالمقارنة مع الشر المطلق. "هل يتوجب علينا [....]التزام الصمت أمام أنواع التعذيب التي تمارس في الجزائر تحت ذريعة هذا الاختلاف الفريد والذي لا يمكن قياسه؟ [5] " يظهر نشاط هذه اللجنة المميّز هنا بالتحديد، حيث أنها ستنشر نتائج التحقيقات التي خاضتها بخصوص معسكرات الاعتقال في جمهوريات الاتحاد السوفييتي، وفي الصين، وفي سجون اسبانيا واليونان، وسجون تونس دون أن تنسى أشكال التعذيب في الجزائر. إن التحقيق الذي قادته داخل السجون الجزائرية، مجموعة من المهجرين القدماء، الذين كان من بينهم "جيرمين تيتون" و"لويس مارتن شوفييه"**Germaine Tillion & Louis Martin-Chauffier**"من فرنسا، قد أثبت ضرورة اتخاذ موقف الناقد الحيادي حيال بلدهم، والتنديد بأساليبه حتى لو لم يكن الحكم المطلق هو النظام السائد فيه.

لقد تمكنّتُ من إجراء تحليل حول قضية "روسيه" [6] في مكانٍ آخر؛ أريدُ أن أتوقف هنا عند سؤال هام: كيف توصّل "روسيه" إلى القيام بمثل هذا الفعل الحميد؟ وما الذي دفعه إلى مثل هذا المصير الاستثنائي؟ ووجدتُ الجواب في روايته (الأيام التي واجهنا فيها الموت) والتي يحكي فيها تجربته الشخصية أيام الاعتقال.

ما يثير الدهشة في هذا الكتاب عندما نطالعه اليوم هو الحيّز الذي تشغله النقاشات السياسية فيه. أراد "روسيه" إعادة تشكيل كل المواجهات، وكل المواقف التي تعرّض لها المهجّرون السياسيون آنذاك. ويروي لنا معتقلون آخرون خرجوا أحياءً من المعتقل، تفاصيلاً عن حياتهم اليومية، وعن تجربة كل فرد فيهم. كان بمقدور "روسيه" أن يحذو حذوهم، كما تدل الرواية، فقد استطاع أن يسرد لنا تفاصيل رحلة الجحيم بين (درانسي وبوشنوالد)، ولكن ذلك لم يكن من ضمن أولوياته. فعلى غرار شخصيات المؤرّخ اليوناني الذي عُرف بموضوعيته في سرد الأحداث "توسيديد Thucydide"، كانت شخصياته تسهب في الكلام- إلى درجة تجعل القارئ يمل أحياناً من رتابة بعض الصفحات. ولكنها تشهد مع ذلك، بوجهة النظر التي اختارها "روسيه" ليروي تجربته، فهو لا يهتم بممارسة مهنة الأديب مجاناً، كما أنه لا يعطي دروساً في الأخلاق، أو الفلسفة، لقد عاش في المعتقل حياةً عسكرية، وها هو الآن يناقش الأمور من هذا المنطلق بعد أن حصل على حريته. يحلم الشيوعيون داخل المعسكرات، بالمجتمع الذي سيشاركون في تأسيسه بعد نيلهم حريتهم، مجتمع خالٍ من كل أشكال الهمجية. أما أحلام "روسيه" فكانت مختلفة عن أحلامهم، ولم يتوانَ عن التصريح بذلك، عندما يقول موجهاً كلامه لحراسه الألمان: "لقد ناضلت طيلة حياتي ضد الرأسماليين. يجب التخلّص منهم والإطاحة بنظامهم. علينا أن نبني في أوروبا ما بعد الحرب، اقتصاداً موحداً، وفق أسس معينة، ضمن إطار ديمقراطي شعبي حقيقي [7]".

لقد كان لهذا المشروع السياسي الأثر الأكبر في التوجيه الفوري لموقف المهجّر "دافيد روسيه"، لقد اعتدنا أن نرى اليوم أن أكثر المعتقلين إقداماً، وبعد التغلّب على الصعوبات الجمّة التي تصادفهم عقب الإفراج عنهم، كانوا يندفعون وراء الرغبة الحيّة للإدلاء بشهادتهم، لمقاومة النسيان، وللاحتفاظ بآثار همجية الجلادين وإنسانية الضحايا. ولكن مثل هذا المشروع لم يكن ليرضي طموح "روسيه". فهو لن يتوقف عند حدود الذكرى، أو التكرار، أو التفحّص، أو إحياء الماضي؛ كان يبحث عن الفهم ليستطيع التصرّف. يقول في هذا المجال: "لقد حرصتُ منذ (بوشنوالد)، على

الفهم دون توقف، والمراقبة الحثيثة [...]، حاولت بناء صداقات مع الشيوعيين الألمان، لكي أهيئ لمناخ ملائم من أجل القيام بعملية التحليل السياسي المشترك بعد الحرب، وذلك بفضل التعايش الودّي، والتقدير اليومي الصادق، كان لا بد لنا نحن جميعاً من جني الفائدة من تجربة المعتقلات هذه، لإقامة إتحاد الدول الأوروبية الاشتراكية[8]". فالكلمات الأساسية هنا هي: الفهم، والسياسة، والخدمة.

كان "روسيه"، في أثناء مدة اعتقاله، يحدّث نفسه قائلاً أن تجربته، مع كونها مؤلمة، يجب ألا تبقى في معزل وألا تُقدّس؛ بل يجب تسخيرها كوسيلة لتحقيق مشروع سياسي. لهذا الهدف، كان يحرص أثناء وجوده في المعتقل على فهم كل ما يدور من حوله. وقد حكى عن ذلك في روايته التي حملت عنوان (حول الحرب)، حيث قال: "كان المأزق بسيطاً ولكن لا مهرب منه. كان علينا الاختيار بين أن نترك للقدر الفصل في الأمور أو أن نفهم ونتصرّف. فالتصرف لم يكن أمراً يسيراً في كل الأوقات. ولكن بمقدورنا أن نفهم في كل الأوقات[9]". ورداً على عبارة "بريمو ليفي" نقلاً عن البوليس السري "لا مكان هنا لطرح سؤال لماذا"، نجد في المقابل الرغبة الملحّة لدى "روسيه" في طرح هذا السؤال: "لماذا؟"

إذاً فهو مشروع سياسي محض. ومع ذلك، تصادفنا سمة أخرى لا تقل أهمية عن العالم الذي تحدث عنه "روسيه" في روايته (الأيام التي واجهنا فيها الموت)، هذه السمة لا تستهدف مباشرة المجال السياسي المعتاد، بل هي ما يمكن تسميته انحلال الفئات التي تشير إلى الهيئات الجماعية - تلك الفئات التي اعتاد عليها التحليل السياسي. لقد حاول "روسيه" اجتناب تصوير لوحات على طرفي نقيض (كالحراس والمعتقلون)، و(الجلادون والضحايا). فالعالم الذي يمثله، مؤلّف من عمليات تضيد وتقسيمات متعددة. كان التناحر من أجل السلطة شرساً بين مجموعات المعتقلين المتعددة. حيث لم تكن تصرفات رعايا البلدان المختلفة متشابهة فيما بينها؛ كما أن البيئة الاجتماعية كانت متباينة. يُضاف إلى ذلك المعتقدات السياسية بين الفئات، فالشيوعيون لا يختلطون أبداً مع اليساريين (التروتسكيست)، الذين كانوا بدورهم مختلفين عن الديمقراطيين البورجوازيين. كان لعدد السنوات التي أمضاها هؤلاء

داخل المعتقلات أثره على سلوكهم. أما النتيجة فقد تمخضت عن صورة لمواقف فسيفسائية لا تنضوي تحت أي تصنيف كلاسيكي مهما كان بسيطاً. " فالأبيض والأسود لا يحافظان على لونهما بشكل مستمر"، هذا ما أورده كاتب سيرة حياة "روسيه" "إيميل كوبفرمان Emile Copfermann"[10].

كان بعض هؤلاء المعتقلين مستسلمين لقدرهم، فانصياعهم لتنفيذ أوامر رؤسائهم دون مناقشة، يعادل رغبتهم في التخلّص من الجوع والبرد والتعب، إنه سجين المعتقلات الأساسي، ذلك الذي امتثل للمتطلبات التي فرضها عليه هذا العالم. فالكل كان عرضة لهذا المصير، و"روسيه" الذي غالباً ما سلِم منه، كان يعرف تماماً سهولة الوقوع فيه مجدداً. لقد كان يفضّل أن تسود بين الرفقاء علاقات خالية من المصالح؛ ولكنه أدرك أنه في حال تنازله عن تبغه إلى صديق، كان سيحصل بالضرورة على حصة إضافية من طبق الحساء والخبز. "كنت لا أتوقف عن الأكل. لطالما اشتد بي الجوع". وكم ندمت على هذا الجوع؛ كنت مستعداً لتقديم أي شيء لاجتناب المرور بمثل هذه التجربة [11]".

هناك معتقلون آخرون لم يذعنوا فقط، بل أصرّوا على إثبات أن خنوعهم هذا كان لا مفر منه، فما إن يحصلوا على بعض السُلطة داخل السجن، حتى يعملوا جاهدين على إرغام رفقاء السجن على الحذو حذوهم، "كانوا يريدون أن يثبتوا لأنفسهم أنهم قادرون على إذلال من هم حولهم من السجناء، وأن يبرهنوا على أن الإنسان أضعف من أن يقاوم، وأنه يكفي تخيّل كل الظروف الجيدة للقضاء على القيم". وتساءل سجين آخر حول الموضوع نفسه، ولكنه سرعان مانبذه: "إذاً فالإنسان ليس مجبولاً على الحقارة فقط؟ كان هذا الشك يؤرّق مضجعه". كان هذا الإنسان يحتاج لأن يرى الآخرين في مرآته. "كوني أرى نفسي أعاني من القنوط، قاسماً كل أواصر العرى، ومتنكراً لأقصى درجات التضامن، كان هذا بمثابة نصر لي، وتبرير كامل لانتحاري، ذلك النصر الحقيقي الأوحد، والأهم الذي يطعن في الحياة [12]".

ولكن ما هي هذه الكرامة التي يحاول بعضهم تدميرها، بينما يحرص بعضهم الآخر للحفاظ عليها مهما كلف الأمر؟ يمكن أن تكون الإجابة بتنقية المرء لنفسه بكل

بساطة، أي يتجنب إهمال نفسه ولا يستسلم للوهن. " فالمقاومة تعني بقاؤه نظيفاً رغم كل المعوقات، من أجل إنقاذ الجزء المتبقي من كرامته". أو أن يختار العمل المتقن، لإثبات أنه عامل متميّز. وبالنسبة لمعتقلين آخرين، فالأمر يعني أن يرد الإهانة بإهانة مثلها. "فالمعتقل الروسي استعاد كرامته بمزاولة القتل". فمن ينتمي إلى منظمة المقاومة يعرف أن كرامته محفوظة، حتى أن الموت لن يقدر على خدشها. ومعتقل آخر اختار إعطاء معنى لحياته باهتمامه بالآخرين. لقد وجد"هيويت **Hewitt**" الطريق لصموده الشخصي، عندما قرر التضحية بنفسه في سبيل الآخرين. فمن أجل استمراره في العيش كان لا بد له من أن يشعر بفائدته، لكي يتولّد لديه اليقين بأنه ينجز عملاً إنسانياً". وهذا ثالث يقاوم وعلى طريقته، بتلقين أصدقائه موسيقى "موتزارت" الهادئة، مضفياً بذلك لمسة من الجمال على حياتهم."كنت أعزف في أمسيات أيام الأحد [...] وكانوا يصغون للموسيقى بإعجاب. شعرت وقتها بالسعادة تغمرني [13]".

من أحد اهتمامات "روسيه" تحطيم اللوح الطباعي المقولب، أي الطابع الخاص لكل الجنسيات، و بشكلٍ خاص ذلك الخاص بالألمان النازيين. كانت هذه المعادلة مستحيلة بالنسبة له، لوجود بعض المعتقلين السياسيين الألمان، بينهم قادة المقاومة ضد النظام النازي. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن الحراس متشابهين. كان هناك قائد ألماني من أنصار هتلر يرفض تعذيب السجناء أو حتى مراقبتهم؛ وقبل انصرافه، تمنّى لهم العودة إلى الوطن بأسرع ما يمكن (كان إنساناً استثنائياً)؛ ويضيف "روسيه" قائلاً: " إلى جانب هؤلاء يوجد أيضاً السجانون المتوحشون". وكان هناك سجّان آخر يترك كل يوم قطعة حلوى لمساعديه. وثالث "يجلب لهم في الخفاء حبات البندورة والفاكهة". ويختم "روسيه" قائلاً: "إن غالبية الألمان لم تكن تنتمي إلى النازية. فمعظمهم قد سئم الإرهاب والحرب. ولكنهم كانوا يجهلون أي طريق يسلكون. [...] لقد فقدوا ثقتهم بأنفسهم وبالآخرين. لقدسيطر عليهم القنوط والخنوع [14]". وما كان صحيحاً بالنسبة للألمان كان ينطبق على بقية الجنسيات، سواء كانوا من روسيا، أو بولونيا، أو فرنسا.

كان الشيوعيون الذين التقى بهم "روسيه" يشاطرونه هذا الرفض للحتمية الوطنية. ولكن هذا الرفض كان يشكّل نقلة إلى حتمية من نوع آخر، اجتماعية وسياسية هذه المرة، لا تقل عنهم صرامة. فإذا أساء أحد المعتقلين التصرّف، فلا يعود ذلك لأصله الروسي أو الأوكراني، بل لأنه ذلك "الحيادي المشترك"، أو "الكولاك" من أصحاب الأراضي الأثرياء، أو "أنه باع نفسه للفاشية"، ذلك ما أورده الرفقاء الشيوعيون- فبالنسبة إليهم كان العالم منقسماً إلى جزئين حصريين، فمن لم يكن من أنصار السوفييت فهو لا محالة متواطئ مع النازية. " إن التمرّد الذي حصل في فارسوفيا، قد قاده الفاشيون البولونيون الذين باعوا أنفسهم رخيصة إلى لندن[15]".

الفارق هنا قاطع، حيث أن "روسيه" لا يطالب باستبدال مذهب الحتمية بمذهبٍ آخر، ولا بإضافة المذهب الثاني إلى المذهب الأول. لقد أدرك أن البشر يرفضون تمثيلهم بشكلٍ كامل من قبل فئات ينتمون إليها؛ فإلى جانب القوى التي تحركهم، يستطيع الأفراد أن يعبّروا عن رغباتهم، وخياراتهم وتصرفاتهم، أي أن يمارسوا حريتهم. لهذا السبب فالاختلاف الذي ينشأ فيما بينهم كبير جداً، فلو انصاعوا بشكل كلي للقوانين السائدة، لتلاشى عندئذٍ هذا الاختلاف ولأصبحوا متشابهين كالمنتجات الصناعية.

من هذه الفكرة بدأ التحوّل الرئيسي يظهر في شخصية "روسيه" أثناء فترة اعتقاله؛ فالنتيجة التي وصل إليها ثمينة جداً بالنسبة له. " كان يدفعني فضول محموم للاطلاع على الأفكار. من الذي يعبأ بهذا الأمر في عالمنا؟ ربما في (بوشنوالد)، أولئك المسؤولون عن المواصلات! تعلّمتُ كيف أنظر إلى هذا الصنف من البشر الذي كان يعيش دون تفكير. واكتشفتُ في أعماقي اهتماماً فريداً نحوهم، حتى أن أكثرهم دناءة كانت لديه صفات مدهشة. فعرفت عندئذٍ أن الأفكار لا تشكل النقطة الأهم للوجود، وأن العالم يمكن أن يتقدّم بدونها [16]". إلا أن هذا لا يعني أن "روسيه" أقلع عن تحمّسه للأفكار؛ ولكنه قدّم ترتيب الأفراد عليها.

وبعد سنوات عدّة، تناول هذا الموضوع مجدداً من خلال مؤلفه (سيرة حياتي) الذي كان أيضاً مذيّلاً بتوقيع "إيميل كوبفيرمان". حيث ذكر فيه:"قبل اعتقالي،كنت

أعيش بين الكتب، وكان عالمي مأهولاً بالأفكار المجردة، كالثورة، والإنسانية، والاشتراكية. عانيت الأمرّين لدى دخولي المعتقل، لقد حُرمْتُ من الكتب! ثم وجدت الدواء في داخلي، فأخذت أنمّيه وأرعاه: بتّ أهتم بالأفراد. "كانت بدايةً لتجربة استثنائية، غنية جداً بالنسبة لي [...] كان مجال المطالعة مغلقاً. فأخذت اكتشف الناس[17]". مع ذلك، هذا لا يعني أن الأفراد هم أفضل من الكتاب؛ ها هو ينغمس ثانيةً بالمطالعة والكتابة، لدى خروجه من المعتقل. ولكنه كان يفكر بالأفراد قبل الكتاب. لذلك عندما دخل إلى المعتقل حاملاً لتلك الآراء المسبقة (كان يصف نفسه "كنت كالمؤيِّد") أخذ يقهر تلك العادة، عادة العيش مع الأفكار المجردة، والتي كانت خطيرة بالنسبة للمفكرين والمقاتلين، وأدرك أن آلام الناس لا يمكن تصنيفها من الآن فصاعداً ضمن فئات. هذه الأخيرة تبرّر الإدانات المطلقة (فالنازية هي الشر)، كان البشر يحاكمون ولكن مع فوارق:" لقد تحوّل بعضهم إلى وحوش ضارية، ويبقى النظام هو المسؤول الوحيد عن إفساد البشر [18]".

هناك قوتان تتصارعان داخل العالم الاعتقالي، رغم وجود مواقف معتدلة عديدة. فمن جهة، هناك البوليس السري الذي يعمل جاهداً لإثبات أن البشر غير متساوين فيما بينهم، إنهم ينقسمون إلى نوعين مختلفين جذرياً: هناك الأسياد وهناك العبيد، النوع الأول يتخذ المبادرة؛ والنوع الثاني يتحمل الخوف، والجوع، والغريزة. فلو اقتنع العبيد أنهم من جنس مختلف، ولو أقلعوا عن كل أعمال المعارضة، وعن الإدلاء بشهادتهم النابعة عن ضعف إرادتهم، وعن أية محاولة لمشاركة البوليس السري في شعوره، لبلغ الأسياد هدفهم.

ومن جهة أخرى، هناك الصمود، الذي يمتد نشاطه ليتجاوز نشاط المقاومة المنظّمة. أولئك الذين لم يتوقفوا عن العمل، حتى لو لم يكن الدافع هو إرادتهم كأفراد أحرار ومسؤولين، وبالتالي فهم يرفضون الإيمان بوجود نوعين من البشر: الأحرار، والخاضعين بشكلٍ كامل. "كان يعتبرنا كل من المدنيين والعسكريين كروث الحيوانات. لم نكن نملك أية ميزة بشرية في نظرهم". أما الذي يرفض الاستسلام فكان يؤكد على العكس، وحدة الجنس البشري، حيث قال "روسيه"لرفيقه "إيميل

كارلوباتش": " لقد أسدى لنا هذا المقاوم خدمة كبرى، إذ فرض وجودنا على الآخرين كبشر". ويختم سيرته الذاتية بالتعبير عن الفكرة التي تقول أن الوحدة تنتج عن تأكيد وجود الحرية الداخلية التي يتمتّع بها الإنسان". فبهيئتنا البائسة هذه والمخيفة، قد أحرزنا النصر في داخلنا، ليس فقط لشخصنا، إنما أيضاً لمجموع البشر. لم نتوانَ مرة واحدة عن النضال، ولم ننكره أبداً [...] ولم نؤمن قط بالنهاية المفجعة للإنسانية [19]".

تميّز "دافيد روسيه" عن كافة المعتقلين القدماء، بنواحٍ عدة. فأنا لم أكن أحد أصحابه المقربين، ولم أكن أعلم بالسلوك الذي ينهج في حياته اليومية (قال لي أصدقاؤه أن حياته الخاصة كانت تتماشى مع تفكيره العام). أما كتاباته، فإنها لا تعكس ذلك الجو القلِق الذي يسيطر على كتابات السجناء القدماء من أقرانه. مما لا شك فيه أنه رأى العنف وذاقه، ولكنه عرف كيف يجني الفائدة منه. إنه هو، أكثر من أي معتقل آخر، الذي أفاد البشرية من الدروس التي استخلصها خلال مراحل حياته، لقد ساعدت التجارب التي خاضها في المعتقل على النضال ضد المعتقلات الحالية، وستحول دون إيجاد معتقلات مستقبلية. فالعبرة التي استنتجها كانت من النوع السياسي، وهي تحدد موقفاً في مكان عام؛ إلى جانب أنها تعتمد على الإيمان بالموضوع المستقل، وهنا يكمن التناقض. بتعبير آخر، يتجسّد المثل الأعلى الجماعي بحرية الفرد. هذا الاكتشاف هو الذي حدد سلوك "روسيه" شخصياً، الذي فضّل، حال خروجه من المعتقل، قول الحقيقة على تقديم الولاء للمنظمات. "لن يهدأ لنا بال في الاختيار بين الحقيقة والكذب، أو الطبقة الاجتماعية أو الحزب، أو الدولة. فمحكمة البداية "الأخيرة" تتبع دوماً من داخلنا [20]".

لقد ساعدته هذه القناعة على اجتياز تجربة المعتقلات بأقل خسائر ممكنة، بل إنه قد حقق منها مكسباً، لقد اكتشف فيها أن أهمية البشر تطغى على أهمية الأفكار، وأن الحياة، حتى تلك التي تهيمن فيها أسوأ أساليب القمع، تبقى حياة بشرية. ويضيف "روسيه" قائلاً هذا هو سر بقاء "إيميل كارلوباتش" على قيد الحياة، ذلك الشيوعي الألماني العجوز الذي استحوذ على إعجابه؛ لقد قبل أن يعيش في

الحاضر كما هو، ولم يستسلم له، ولم يعتبر أنه يعيش حرماناً بالمقارنة مع حياته السابقة، التي كانت أفضل بكثير (وهذا ما سهّل عليه العيش لسنوات في هذا الجحيم، إنه القرار الذي اتخذه بقبول العيش في العالم الاعتقالي، مشيحاً بذلك عن أحلام الماضي المفسِدة"). وهذا أيضاً ما تعلّمه وحاول الاستفادة منه، ألا يترك نفسه عرضة للحنين إلى تلك اللحظات، أو أولئك الأشخاص البعيدين، أن يفتح عينيه على العالم الذي يحيط به، أن يستعيد بهجة الحياة على الرغم من هذه الظروف المهينة، أن يقبل الحاضر بالأشخاص الذين يأهلونه. "إني أدين لهذا الشعور الجديد الذي دفعني للتغلّب على ذلك السلوك الحيواني، لأبناء جنسي، والذي حال بيني وبين أن يموت تفكيري خنقاً. لقد بدا لي على العكس أنه يزيد من خبرتي[21]".

تلك إذاً هي نهاية التجربة الأكثر حيوية التي نُقلت إلينا من معسكرات الموت.

obeikandl.com